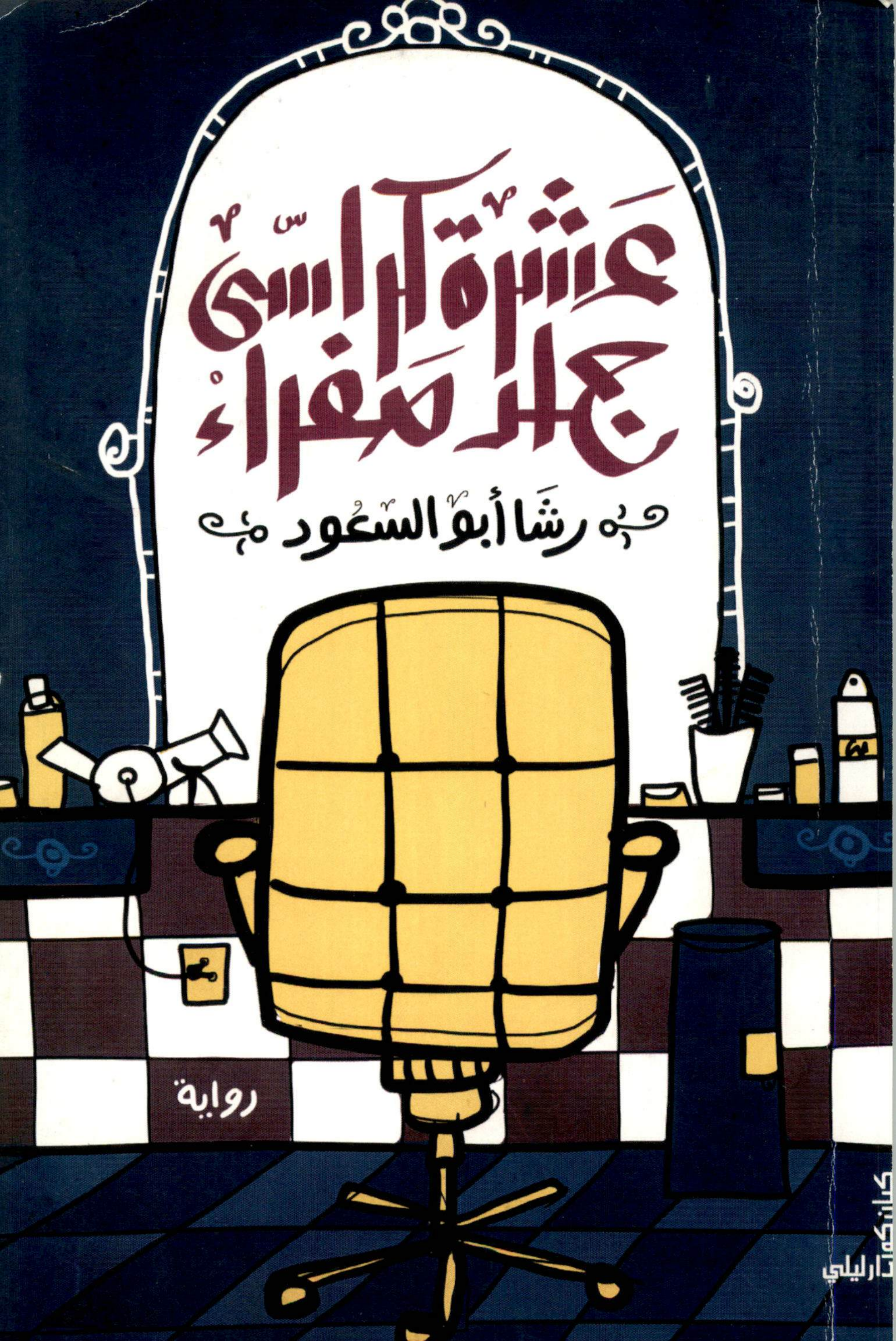

عشرة كراسي صفراء
رشا أبو السعود
رواية

رشا أبو السعود

عشر كراسي جلد صفراء

رواية

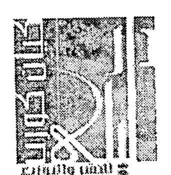
الكتاب:
عشر كراسي جلد صفراء
المؤلف:
رشا أبو السعود
رقم الإيداع:
8672 /2012
الترقيم الدولي:
978-977-5238-24-5
★★★
الغلاف:
كريم آدم
الإخراج الفني:
حسام سليمان
التدقيق اللغوي:
محمد عبد الغفار
★★★
التوزيع:
عبد الله شلبي
الإشراف العام:
محمد سامي
★★★

المهندسين-23 شارع السودان—تقاطع مصدق-الدور الرابع—مكتب 11
هاتف: 33370042 (02) (002) - 23885295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

كيان كورب
للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلى

رشا أبو السعود

عشر كراسي جلد صفراء



إهداء

في الإهداءات عـادة الكاتـب يـشكر صـاحب الفـضل عليـه.. يـشكر الآخر المؤثر فيـه.. النـور الـذي هـداه للطريـق.. وأنـا في أعمـالي الـسابقة أهديت من قلبي:

أمي التي غرزت فيَّ عالم رائحـة الكُتـب، وأهـديت مطببـة نفـسي التي علمتني مفاتيح البقاء وعرفتني أنني أملك الشغف.

وأهديت أولادي كُل نفسي ومعها دليل تحقـق الأحـلام، وأهـديت والدي الفنان اسمه المحفور على ذاتي.. وعلى كُتبي..

لكن هنا.. "دلوقتي"..

اللي جاساه بجد، إني بهـدي الكتـاب ده لـرحلتي.. لتعـاويري.. لقوتي.. لأحلامي..

١
متى سأرسم عينيّ؟

فتحتُ باب «الكوافير» ببطء وحرص، وكأنني أفتح باب غرفة رضيعٍ نائم.. دلفت وأنا أبحث بعيني عن رانيا.. الفتاة الماهرة التي تتولى معظم الأعمال بالمحل.. أحرقَ عيني ما كان بالمكان من بخار عبّأه بضبابه، ورائحته النفاذة، وكنت أحاول أن أرمش كثيرًا علّني أرى، حينما عاجلني صاحب المحل بالتحية.. وكنا نسميه - نحن الزبائن - أستاذ «كنيش».

- سلام عليكم.. رانيا هنا؟

- عليكم السلام يا أفندم وكل سنة وحضرتك طيبة.. أيوه.. رانيا جوه!!

لم أُجِبْه ودخلت قسم المُحجبات..

تعجبت دائمًا من تسمية هذا القسم.. فهو لم يكن قسمًا.. كان

جُحرًا مساحته متران في مترين، وكنا نجلس فيه مصطفين ملتصقين ببعض كسمك الأنشوجة اليوناني بعلبته الصفيح الصغيرة.. لكن لم يكن هناك مفر.. فقد تميّز المحل بقربه من مسكني وتميز بوجود رانيا..

– ازيك يا رانيا.

– أهلا يا أفندم.. كده برضه الغيبة هاهاها.

– أهه بقى.. ظروفي صعبة.

الحقيقة أن ظروفي لم تكن صعبة؛ فلم يكن هناك ما يمنع زيارات متكررة.. كل ما في الأمر هو أنني لم أكن أشعر برغبة مُلحة لزيارة رانيا إلا كل شهر أو شهر ونصف الشهر على الأقل.. فقط عندما أجد أنني في حاجة إلى دفعة ترفع معنوياتي كأنثى..

فلم أكن أبدًا ممن يشعرن بحاجة إلى تصفيف شعرهن.. كما أن حاجبي مرسومان بطبيعتهما، وكان الشعر الذي يعلو فاهي خَفيفًا.. إنما.. إنما ما كان هذا هو السبب.. أعتقد أن السبب الأساسي هو أنني لم أعتَدْ الاهتمام بنفسي كما النساء..

فقد تمت تربيتي على أن حاجات السيدات، مثل «السويت»، و«الفتلة»، وتصفيف الشعر و«الباديكير»... إلخ، أشياء لا أحتاجها.. لم تكن في القاموس الذي لقنتنيه أمي..

أتذكر أنني كنت أفزع حين أرى إحدى زميلاتي بالمدرسة الثانوية وقد تورَّم وجهُها من نزع شعره بالفتلة.. فقد ربتني أمي أن هذه الأفعال لا تؤتى إلا من الفتيات المستهترات.. على حد قولها: «البنات تنعّم جسمها ليه إلا لو عشان واحد يلمسه؟! مسخرة وسفالة!!».

ولم يخطر ببالي أن أفعل مثلهن إلا حين تزوجت.. فقط لأن هذا هو ما كان مُتَوَقَّعًا..

فقد اهتمت أمي أن تشعرني دائمًا بأن عقلي يجب أن يكون عقل رجل.. وأن طموحي المهني يجب أن يبقى عاليًا جدًّا كرجل.. أو بمعنى أصح أن يبقى العلم والعمل هما كل طموحي.. وأنني بشكلي الأقرب للأجنبيات.. جميلة بما يكفي.. وهن لا يصففن شعرهن «ميزمبليه» ولا يقربن «السويت».

لكن الآن، وقد كبرت وشارفت على الأربعين، أشعر أنني لم أتزين بما يكفي في شبابي ولم أمرح وأخرج وأستمتع في صغر سني كما كان من المفروض..

وأنا في العشرين من عمري لم أغطِّ بشرتي بـ«الماكياج» حتى لا يصيبها العجز سريعًا.. وأنا في الثلاثين لم أستخدم «ماكياج» لأنه كان يظهرني أكبر سنًّا..

والآن لا أعلم متى سأشعر أنني جميلة.. امرأة منمقة ومهتمة بنفسها!

متى سأرسم عينيّ.. وأحدد شفتيّ.. وألوّن وجنتيّ؟ متى؟

فشعور المرأة بجمالها شيء لا علاقة له بكونها جميلة حقًا أم لا..

لا يوجد تعريف للجمال؛ فهو حالة.. إحساس.. قد ينقله الآخر إليّ ولا أصدقه إلا إذا انبعث من شعور داخلي يضفي رونقًا على كياني حتى إن لم أضع نثرة «بودرة» واحدة..

إلا أنني أشتاق لتلك المنثورات.. وأشتاق إلى الضوء الداخلي الذي يهبني جمالاً..

وأشتاق لأن أضع جمالي.. برغبتي الكاملة.. بين يدي من أحبه ويحبني..

- هنعمل إيه النهارده يا أفندم؟

- مش كتير.. حواجب وشنب وضوافر.

- مش ناوية تخليني أقص لك شعرك؟

- لا لا شعري لا.. الله يكرمك هو مش ناقص.

- يا أفندم الشعر زي النبات.. لازم يتشذب عشان ينمو ويبقى

صحي.

- طيب المرة الجاية يا رانيا.

- حاضر يا أفندم.

ورثت عن عائلة أبي شيبًا مبكرًا.. فمن يرى جذور شعري لا يصدق أنني ما زلت في منتصف الثلاثينات، ولهذا أصبغ شعري كل شهر حتى تساقط نصفه.. إلا أن صبغ الشعر فرصة رائعة لتغييرٍ منتظم؛ فمرة أشقرَ.. ومرة أحمرَ، ومرة لونًا كريهًا لا أقبله فأسارع بتغييره فورًا.. ألوان تلون حياتي بعض الشيء.. حياتي الرتيبة.. الروتينية.. فاقدة اللون..

على أي حال.. لا يضيرني التغيير.. فما يرى أحد خصلات شعري الحريري إلا عيناي وأولادي.. ولا يحب ألواني وقصّاتي إلا طفلاي.. اللذان يهتمان بتذكيري بأن شعري ملأه الشيب فأسارع إلى صبغه ثم وأده تحت غطاء شعر قاتم لا رسم فيه..

استغرقت بأفكاري وأنا أنتظر أن تتفرغ لي رانيا وتبدأ العمل، حين رن هاتفي:

- ألو.

- سلام عليكم.

– طيب.

لا أعلم لماذا تصيبني قراءة المجلات الملقاة على منضدة صغيرة بأحد أركان قسم المحجبات بصداع وغثيان..

أقرأ دائمًا ببيتي ولا يصيبني إلا النعاس، خاصة أنني أعشق القراءة على ضوء الشموع.. كما اعتادت أمي.. فأنا أحب تقليد أمي في طقوسها..

أحب كيف تصحو باكرًا لتشرب القهوة وتدخن سيجارة وهي تقرأ كل حرف بالجريدة بادئة بآخر صفحة بها..

وأحب كيف تضيء شمعة كل ليلة وتقرأ بكتاب.. ثم تأتي بكسرات من الخبز الجاف والجبن لتأكلها في أثناء القراءة..

وأحب كيف تقشر البرتقالة.. وكيف تترك الشوكولاته تذوب في فمها ولا تمضغها.. وكيف تحل الكلمات المتقاطعة بالجريدة بعد المغرب وفي وقتٍ قياسي ومن دون أخطاء..

أحب أمي كثيرًا.. حتى إن أصابتني بالجنون..

أتعجب من تلك المجلات الحديثة.. مبهرة.. سعودية ومصرية ولبنانية وهي تعج بصور الفنانين وأخبارهم وأحدث صيحات «الماكياج» والعطور والموضة.. لا أعلم كيف صنعت المجلات المصرية من نفسها

أجنبية.. لغة ونوعًا وآراءً.. حتى نوعية مشكلاتِ القراء وكيفيـة حلّهـا.. تشعرني بأنني أقرأ عن المجتمع الأميركي وليس المصري.. ربما هي كذلك لأنها موجهة للأجانب.. وربما لأن قراءَ تلك المجلات والمهتمين بما غـلا ثمنه بإعلاناتها يعيشون مثل الأجانب.. لا أعلم..

– اتفضلي يا أفندم.

– الكرسي ده كل ما بقعد عليه بينزل لتحت يا رانيا.. انتو مستقصدني؟ طب أقعد في كرسي تاني؟

– هاهاها.. يا أفندم ما هو ده كرسي الحواجب عشان فيه مسند الراس.

– طيب ظبطيه.

– حاضر هاهاها.

– إيه ده؟ إيه المقص وفرشة السنان دول؟

– عشان نقص طراطيف الحاجب من فوق بعد الفتلة.

– تاني انتي؟! لا يا حبيبتي.. للمرة العشرين ألف.. أنا ما بقصش ولا بَغيّر شكلهم ولا برفعهم.. أنا بنَضّف حواليهم بس.. شيلي بقى العدة بتاعتك دي..

– آخخخ.. سوري يا أفندم والله.. بنسى من كتر الزباين.

- ماشي ماشي.

أتذكر جيدًا أول مرة قصدت إلى «الكوافير» لأفعل بحاجبي ما تفعله السيدات.. أعتقد كان عمري وقتَها ثلاثًا وثلاثين سنة، كنت قد ملت برأسي للخلف وحين اعتدلت ولمحت صورتي بالمرآة.. رأيتُني وقد تحولت إلى ما يشبه كائن الفضاء بمجلات الرسوم المتحركة التي يحبها ابني.. فالفتاة التي اهتمت بحاجبي يومَها قد قامت بإزالة معظم الحاجبين إلا عن خطين رفيعين مدببين على شكل رقم ثمانية، مما حولني فجأة إلى شخص آخر لا يمت لي بصلة.. فصرخت فزعة: إيه ده؟ أنا قلتلك تنضيف بس. فقالت بازدراء: يا أفندم أنا ما بوظتهمش.. أنا عملتهملك أتراكتشيف!!

«أتراكتيف»؟!

لم يكن بوجهي يومها أي شيء جذاب..

ومنذ ذلك اليوم المشئوم، الذي إثره اختبأت ببيتنا شهرًا، والذي إثره أيضًا أصبحت أحتاج دائمًا لأن أشذب حاجبيَّ.. منذ ذلك اليوم بحثت كثيرًا كي أجد فتاة تتقن الاهتمام بحاجبي ولا تعرف كلمة «أتراكتشيف»!

تعجبت كثيرًا أول مرة اجتاحت هذه الموضة الشارع المصري.. أيامها خُيِّل إليَّ أن فتياتِ مصر كلَّهن تشبهن بالعفاريت.. عجيبٌ جدًّا

كيف يجد الرجال الألوان الفاقعة وشكل الحاجبين شديدي الرفع رمزًا للجمال والجاذبية؟

عمومًا.. للرجال مزاج لم أتآلف معه أبدًا.. والناس لهم الحرية.. فلِمَ أبالي حتى إن كنت لا أشبه النساء اللاتي يُمِلن الرءوس؟

يغلبني الحنق أحيانًا.. إحباط يثير الغضب..

– بصي كده يا أفندم قوليلي رأيك.

– تسلم إيدك يا رانيا.. ظبط!

– انتي بس عشان حلوة يا أفندم.

– هاها.. الله يكرمك يا شيخة.

– باديكير يا مدام؟

– أيوه.

إحساس رائع أن أترك قدمي لتغطسا بطبق مليء بالماء الساخن والصابون السائل المعطر.. ساعتها يمر الوقت طويلاً وأنا أحب أن يطول.. لِمَ لا أصنعُ لقدميَّ طبقًا كهذا بالبيت؟ لِمَ لا؟!

– إيه ده؟ إيه ده يا آنسة؟! زقيتي الطبق وغرقتيني ميه!!

– أوه.. سوري.. محلكوا ضيق قوي يا رانيا..

– ما هو عشان كده الواحد المفروض يخلي باله وهو معدي.

– ما خدتش بالي أنا.

– لا ابقي خدي بالك لو سمحتي.

– نعم؟

– اعتذار مقبول.

– وات إيفر.

– بيه.. وات إيفر.

أنا لا أطيق السيدات ولا صحبة السيدات، ولا أجد بنفسي ما يتعاطف معهن.. ولا يوجد بداخلي منطق يستند إلى قبلية أنثوية أو حتى تناغم النوع مع النوع.. ربما لأني لم أُربَّ على إحساس الوحدة مع بنات جنسي.. أو ربما لأن معظم المصائب التي رأيتها تصيب العائلات كانت بفعل النساء في الأساس..

عندما أقيِّمهن أجد قدرتهن على الخُبث والكيد تفوق الوصف.. وأجد أن الغيرة الكامنة بهن وحب انتصار بعضهن على بعض يفوقان الاحتمال.. وأجد أن أنانيتهن تعادل أنانية الرجال وهي الأنانية الأكثر إيذاءً..

والاستثناء النادر هو أن ترتفع إحدى السيدات عن تلك المغبات،

وحينها تُهدي الدنيا روحًا جديرة بالقدسية..

أما الرجال فمشكلتهم أنهم أغبياءُ.. تقودهم شراهتهم لعمى تام.. ولولا النساءُ الخبيثات ما كان رجل ليتجرأ على ترك زوجته وتشريد أطفاله ليجري لاهثًا وراء امرأة ذات شعرٍ أحمرَ ناريٍّ وظلّ جفون أزرق براقٍ.. امرأة غالبًا ما ستذيقه من ألوان العذاب ما يحقق جنونه وستستهدف جبهته بحذاء ذي كعبٍ عالٍ رفيع..

واقع مرير.. لكنه حقيقي..

لطالما آمنتُ أن بالسيدة الصالحة تنصلح الدنيا، وأن بالمرأة اللعوب تعدو الدنيا مكانًا قاسيًا على من لا يعرف اللعب!

وتستفزني هذه الفتاة التي بللتني بالماء ثم أنفت أن تعتذر.. هي من النوع المُتعالي بلا «أمارة».. التي تشعرك أنها صرصار يلبس «بدلة» وممسك بالصولجان.. وهي مادة غنية لما أشتهر به من استهزاء وسخرية لاذعة.. لكنني لا أملك طاقة اليوم لأهدم خُزعبلاتها الوهمية..

كما أنه يظهر عليها الاكتئاب.. أو هي كئيبة.. سوداوية بشكل لافت.. وعيناها تائهتان ويظهر على قسماتها الشعور بالغثيان..

– أفندم.

– أيوه يا رانيا.. بتوشوشيني ليه؟

– هقولك بس يا أفندم.. (وأشارت برأسها تجاه الفتاة الكئيبة) أصل آنسة نُهى والله غلبانة وما تقصدش.

– إيه الغلبان فيها بقى؟ وقاحتها؟

– ثواني بس يا أفندم.. أصلها لسه مطلقة من أسبوعين وكانت لا أكل ولا شرب.. أصل مامتها زبونة هنا وكانت بتعيط وبتحكي لمدام سميرة الجزائرية.. حضرتك عارفاها؟

– أيوه.

– مامتها بالعافية خليتها تنزل تغير جو وتعمل شعرها.. هي مُنهارة والله.. تقريبًا عرفت حاجة عن جوزها وحشة قوي.

– طيب.

كادت تنطلق من فمي عبارة: «يا سلام!!».

أعرف الطلاق جيدًا.. وشعوره الباتر للنفس، حتى إن كان فيه نجاة من زيجة مريرة ومسيئة.. وأذكر جيدًا أنني لم أكن أهين الآخرين أو أعاملهم معاملة سيئة حينها..

أحقيقة، أم نسيت كيف كنت أيامها؟!

أتذكر جيدًا أنني لم أكن أطيق نفسي ولا أولادي ولا أمي ولا

أحدًا..

إذًا.. سأعذرها..

هي صغيرة في السن!

يا عيني يا بنتي.. عمل إيه الزفت جوزك بهدلك كده؟ عشان كده تحت عينيكي اسود وعينيكي داخلين لجوه وشكلك قرفان.

أشرق وجهي حين دخلت جيجي:

- أهلا جيجي.

- أهلا حبيبتي.. ازيك.. إيه القمر ده.. عاش من شافك.

- أعمل إيه بس.. والله ما لاقية وقت أعمل أي حاجة في أي حاجة.

- ربنا معاكي يا حبيبتي.

جيجي أم بالفطرة.. أم لم تلد أبدًا، لكن كل الناس أولادها.. جميلة ومن عائلة طيبة وتعدت الأربعين ولم يسبق لها الزواج.. تُعرف بحنانها الطاغي وطيبة قلبها التي تستوعب العالم وما فيه..

فهي حين تُسلِّم تحتضن.. وتشعرني بحضنها أنني في معزل عن سوء العالم.. وينتابني شعور كبير برغبة في البكاء.. ذاك البكاء الذي لا

يحوي حُزنًا وإنما هو إفاضة شعور خامل مختبئ..

جيجي يحبها كل من يعرفها.. وهي دائمًا ما تحمل نسيمًا محببًا، وما إن تطأ قدماها المكان إلا ويتغير الجو إلى ابتسامات وبشاشة وضحك..

وتنمّرتُ فجأة حين رأيت الفتاة الكئيبة تتحدث مع جيجي بالدناءة ذاتها التي تحدثت معي بها.. إلا جيجي!!

– بليز، شيلي شنطتك من على الكرسي عشان أقعد..

– اتفضلي.. أنا اسمي جيجي (وابتسمت بحنان وكأن صوت البنت المستفز مجرد زقزقة عصافير).

– وأنا اسمي نهى (وتحول صوتها إلى طيبة فورية غريبة).

– أهلا حبيبتي.. أنا أول مرة أشوفك هنا، مع إني مرابطة هنا على طول.

– يمكن عشان بقالي فترة ما بجيش..

– سبحان الله.. انتي شبه أختي الصغيرة بالظبط.. هي صغنطوطة زيك كده وقمر.. كانت المفروض تيجي معايا بس جوزها بقى الله يسامحه.. ما علينا..

شردت الفتاة ولم ترد، إلا أن قسماتها نضحت بألم شديد.. وما كانت إلا ثوانٍ قليلة حتى غطت وجهها الدموع.. وفزعت جيجي وانتبه الجميع..

– إيه ده؟ ما لك؟ أنا ضايقتك في حاجة؟ بتعيطي ليه؟

قامت جيجي إليها وضمتها إلى حضنها.. بل كادت تهدهدها كأنها طفل صغير، وكانت الفتاة تتنفس بصعوبة ويشتد نحيبها.. لم تنطق بكلمة ولم تتوقف عن البكاء الذي صار نحيبًا..

وفجأة تغيرت الأجواء بالمحل وسُمع صوت نحيب نُهى في أرجاء المكان، سواء بقسم المحجبات أو خارجه، حتى إن «أستاذ كنيش» فزع إلينا ووقف من وراء الباب «الأكورديون» ليسأل عن الأمر.

- فيه حاجة يا هوانم؟ خير؟ إيه يا رانيا؟ فيه حاجة؟

- لا يا أستاذ.. مدام نهى بس متضايقة شوية..

- طيب يا رانيا اسأليها أكلم لها مامتها ولا حاجة؟ الهوانم اللي بره هنا قلقانين..

- خلاص يا أستاذ كله تمام هي بقت كويسة وآنسة جيجي معاها..

- طيب الحمد لله.. ما دام جيجي معاها هتبقى كويسة..

وانضمت بعضهن ومن كُنَّ بالداخل معنا إلى جيجي ليربتن على ظهر نهى وكتفها وليهدئنها بكلمات مثل «صلي ع النبي يا حبيبتي.. إيه اللي مزعلك كده بس؟»... إلخ.

أما أنا فتسمرت مكاني.. مصدومة أو حزينة، لكن مجمدة.. وكأنني فجأة أحسست بأن ألمها انتقل إلى قلبي.. وهي استقرت بحضن جيجي مخفية وجهها بصدر الأخيرة.. وجيجي تربت عليها وتهمس لها بكلمات لا يسمعها أحد إلا نهى..

أكره البكاء كذلك.. أنا أبكي.. لكن ليس هكذا.. أبكي بلا صوت.. لا أسبب إزعاجًا للآخرين ولا أجتر حزنهم.. ولا أشاركهم حزني.. فقط أستطعم ملح دموعي ومرارتها.. فتتساقط وتنهمر.. ويختنق الصوت في حلقي.. أشعر بقلبي وكأنه أشلاء تتمزق فتنهمر المزيد من الدموع.. دموع كثيرة لا أرى من خلالها شيئًا إلا ألمي أو حزني أو وجع إشفاقي على حالي..

«اللي جرب الجرح طعمه إيه صعب يجرح حد تاني.. أو أحيانًا من كتر ما جرحه صاحي وعمال يوجع فيه بيبقى متغاظ من الدنيا فبيجرح يمين وشمال..

يا ترى جوزها ده من أي نوع فيهم؟ ولا هو عمره ما انجرح فمش عارف وهو بيجرح إنه بيجرح؟».

رأيت جسد الفتاة وهو ما زال ينتفض من البكاء.. أشفقت عليها.. إلا أن عصبية كبيرة انتابتني بسبب صوت نحيبها العالي.. وتمالكت نفسي بالكثير من المجهود ألا أصرخ فيها كي تتوقف..

وفجأة اعتدلتْ وبلعت ريقها عدة مرات.. ومسحت دموعًا امتزجت ببقايا كحل سال من عينيها وهمت أن تقول شيئًا..

غالبًا كان حضن جيجي المشجع على الاطمئنان هو ما جعلها تتكلم.. تفضفض.. أو.. أو ربما جاذبية أن تحكي لغرباء.. فرصة لا تُعوَّض.. أن تحصل على حنان وتفاهم ومؤازرة أناسٍ لن تراهم ثانية.. أناسٍ لا يعرفون عنك إلا اسمك.. أناسٍ لن يحكموا عليك أو يضطروا لأن يفاضلوا بين وقوفهم في صفك أو صف الطرف الآخر.. أناس لن يكونوا موضوعيين إطلاقًا.. وربما ذلك هو أجمل ما في الموقف..

– أنا مش هقدر أقول هو عمل إيه لأني مش قادرة ألفظ الكلام.. بس أنا اتصدمت صدمة عمري في ابن عمي وحبيبي اللي بحبه من وأنا طفلة صغيرة.. طيب ليه اتجوزني وهو كده؟ ليه؟ ما كان يسيبني.. ليه أتصدم كده؟ وليه الدنيا وحشة كده؟ ليه القبح ده؟ ليه القذارة دي؟ ليه؟

وانتحبت ثانية بصوت أعلى مما سبق..

العيون كلها التفتت بعضها إلى بعض.. وكأنها تبحث عن إشارة..

وكأنها تحاول أن تخمن نوع البلاء الذي أصابها والكارثة التي فعلها الزوج في حق نهى.

«خانها مع حد عزيز عليها؟ طلع ما بيعرفش؟ سرق ورثها؟ طلع متجوز عليها ومخلف من زمان؟».

– بصي يا نهى.. أنا ما اعرفكيش كويس بس أنا حاسة بيكي.. واعتبريني أختك الكبيرة.. الرجالة أحيانًا بيبقى لهم نزوات وبيغلطوا بس والله مش همَّ السبب الوحيد.. فيه ستات لعنة..

– لا يا جيجي.. مفيش ستات لعنة.. الرجالة بس همَّ اللي لعنة.. والموضوع مش كده..

– طيب أنا فاهمة إن ده مش مكان مناسب للكلام.. بس إذا في أي وقت حبيتي تتكلمي والله أنا تحت أمرك في أي وقت.. وفي أي حاجة.. إديني موبايلك أحطلك عليه نمرتي..

وأخذت جيجي الهاتف لتسجل عليه رقمها.. وسكتت الفتاة.. لم تبكِ ثانية..

أما رانيا فقد بدأت العمل بشعر نهى وكأنها قصدت عدم إعطائها فرصة لتبكي ثانية ووافقتُها ضمنيًّا.. فأحيانًا إلهاؤنا عن الوجع يموهه..

وتعالى صوت رانيا تمازحها بحكاويها ونوادرها مع الزبائن..

أما أنا فقد سمحت للفتاة الجديدة أن تعمل بقدمي بدلاً من رانيا..

وتذكرت أبا ولديَّ.. تذكرت لِمَ تركته، ولِمَ كرهته.. تذكرت لقطات بسيطة من حياتنا.. تذكرت كيف خنقني.. وشرع في موتي موتًا بطيئًا تصاعد فيه الألم حتى أصبح لا يُحتمل.. وتذكرت فيمَ أخطأت.. وذكرى خطئي جرحتني.. وذكرى ما دفعته ثمنًا لأخطائي.. ثمنًا باهظًا كان..

الدنيا هكذا بالضبط.. أخطاؤنا وأخطاء الآخرين.. أخطاء قاسية نتجرعها غير عابئين..

«قال عياط ونهنهة وتلم عليها كل المحل! إيه يعني؟ ما تلات أرباع ستات مصر يا اتخانوا، يا اتخانوا واطلقوا.. إيه؟ مش نهاية العالم.. ما تجمد كده.. بت طريَّة أوي.. ما أنا أهو زي الفُل.. عايشة ومعيشة ولادي وفُل الفل..

طب ما ريري صاحبتي اطلقت بعد ست شهور جواز لما اكتشفت إن جوزها مالوش في الجواز أصلاً، ومش يلم نفسه، ده كمان كان بيضربها عمال على بطال.. وأهي عايشة وجميلة وبتشتغل وكمان قربت تتجوز تاني راجل محترم..

ولا روان جارتي والهلف الزبالة بتاع كمال الأجسام اللي ما يعرفش غير بلبعة هرمونات ونفخ عضلات وكان حابسها في البيت

وبينسى حتى يجيبلـها أكـل.. مـا هـي اطلقـت واتجـوزت تـاني وعايـشة سعيدة..

هيكون جوزها عمل إيه يعني أكتر من اللي عملوه دول؟ أففففـف أنا قرفت من كهن الستات ده.. تلاقيه بالكتير ما جابلهاش فستان جديـد ولا حاجة».

هـو الحـب.. النـار الـتي إن لم تحرقنـا تحـرق القـوة فينـا.. لـذة الحب.. شغف الحب.. الشوق..

أتذكر أول مرة أحببـت.. كنـت صـغيرة بالمدرسـة.. حُـب الـصغار أجمل حب..

فالصغار يشعرون بـأنهم ملّـوا انتظـار الـسنين ليكونـوا في مـصاف الكبار.. فيتكلمون الكلمات الكبيرة ذاتهـا بمعانيهـا العميقـة الـتي تليـق بروايـات المُحـبين.. يـشعرون بـالحرارة ذاتهـا.. يتلعثمـون ويتـأرقون ويُصرون علـى حـبهم الـذي يحمّـر وجنـاتهم اليانعـة.. يجعلونـه سـرهم الصغير.. ويخفق قلبهم للبوح وبالبوح، ويحلمون بمستقبل يحمـل حـبهم الأبـدي، غـير متعـرفين علـى واقـع الـدنيا المريـر، ولا تُغلـل أحلامهـم حـساباتُ الكبـار ومآسـي الـدنيا وخـوف المـستقبل.. هـم فقـط يعرفـون كلماتهم.. ويؤمنـون بحـبهم وهمـساتهم.. وخطابـاتٍ بمـا بهـا مـن شـعر

ورسوم قلوبٍ وأزهار..

فالشوق كل الشوق لعشق الصغار.. عشقٍ لا مدرك أن الحب مركبٌ ورقي تحمله تدفقات نهر لا يستقر بمكان.. بل يجري حاملاً معه أثرًا من الضفاف كلها..

ها هي نهى وقد اعتلت «بُكلات» الشعر رأسها.. وجهها يكسوه لمحة من القهر.. شرود.. حتى وهي لا تبكي.. تظهر وكأنها ما زالت تبكي بكاءً داخليًّا صامتًا..

تمنيت لو كنت موهوبة مثل جيجي في سهولتها؛ حيث يتكلم معي المتألم بسهولة فيجد واحة وراحة.

أنا أعرف أنني أفتقر إلى هذا.. ربما عبوسٌ أراه على وجهي كلما نظرت للمرآة خلسة..

أنا لست مكتئبة كما يظن الناس.. ولا نكدية كما يتخيل البعض.. أنا فقط سمحت للمقت والملل من الناس أن يتسللا إلى قلبي لسنوات طويلة..

«واديني قاعدة وسط خمس ست ستات.. ما فيش واحدة فيهم مشرقة كده ومرحة وباين عليها السعادة.. يمكن المشكلة مش في الستات.. طب ما هي كل الناس في الشارع شكلها قرفان.. الرجالة عندهم اللي قارفهم والستات كمان.. وادينا عايشين.. لا فارق معانا قرفنا ولا إحنا

فارقين مع حد..

إيه ده.. أنا قفشت نفسي يائسة.. لأ.. أنا مش كده.. أنا كنت جميلة زمان..

يمكن إن الواحدة تبقى أنثى شيء محتاج تمرين.. يمكن عايز تربية أنثوية.. حاجة زي الجيشا بتوع اليابان.. يمكن ساعتها الست ما تتخانش ولا تحزن ولا تكتئب.. ويمكن الرجالة يبقوا مبسوطين ومنتعشين ومش مكشرين..

ولا يمكن دي طبيعة.. طيب ما الأجانب ما بيعملوش أي جهد للزينة.. وكمان في رجالة كتير عندها وفاء.. باين!! أعتقد!!

يمكن قِرَف؟!

يمكن في ناس فقر بطبيعتهم؟!

أوبا!! الساعة داخلة على ستة».

- شهلي والنبي يا آنسة.. مش هبات هنا أنا..

- خلاص يا مدام.. اللون ينشف بس..

- طيب.. ماشي.. أستنى.. وماله.. مانا فاضية.. أففف.

2

موصومة بإدمانه

الخجل..

لا أشعر بالراحة بعد البوح والإفاضة بكل ما في قلبي من ألم وبكاء.. فقط أشعر بالخجل..

أعيد على نفسي دائمًا، حتى أهدأ وأطمئن، أن كشفي لجرحي بين النساء الغريبات ليس بأمر جلل.. هُنَّ غريبات.. لا يعرفنني ولا أعرفهن.. وغالبًا لن أراهن ثانية أبدًا.. ودائمًا أستطيع أن أصفف شعري عند محل آخر..

أعيد على نفسي تلك الجمل، آملةً أن يهدأ خجلي.. إلا أنه لا يهدأ.. فما بي أكبر من الخجل.

ربما.. ربما هو ليس شعورًا بالخجل.. ربما هو شعور عميق بالعار..

عار أن أكون امرأة ناقصة معيبة يخونها زوجها.. عار أن أكون ممن تصبح قصتهن حكاية تتلاسنها النساء وتتقاذفنها بالأحكام..

أتمنى لو لم أكن قد بُحت..

لو كنت فقط قوية الشخصية، يحترف وجهي إخفاء ما يعتري صدري.. أتمنى لو كُن نساءً غير طيبات.. ربما كنت قد شعرت بعار أقل وسمحت لنفسي أن أداري ألمي في مسبتهن..

غريبات هن، لكن طيبات، خاصة تلك السيدة جيجي، التي احتضنتني.. بها حنان كنت أحلم أن أجده عند أمي.. إلا أن أمي أستاذة بفنون التأنيب وإرساء الهموم إلى قلبي وزرع الشكوك بصدري.. تشككني بنفسي.. بأن أكون أنا سبب الخيانة.. أن أكون أنا المشوهة وهو الإنسان المعذور.. أن أكون أنا أفتعل جرحًا لا لزوم له؛ فـ«الست الشاطرة تحتوي الموقف مش تصعده وتقول هاطلق» على حد قولها..

أشعر بالعار نعم.. ماذا لو قابلت إحداهن صدفة في مكان ما ذات يومٍ؟

ماذا لو حكت إحداهن قصتي لزوجها أو أختها أو صديقتها وكان أحدهم يعرف زوجي أو أهله.. نعم.. ففي أكثر الحالات المحرجة تجد الدنيا وقد صغرت لتتسع بالكاد لزملاء المنضدة الواحدة وينكمش العالم

ليصبح كل من فيه يعرف حتى مقاس حذائي!

أتمنى ألا تحكي إحداهن لأحد يعرف صديقات النادي.. لن أُفضحَ بينهن.. فكلهن كن يغِرن من جمالي ومالي.. ستكون الشماتة فرحًا يتزين له..

تبًّا لإحساس العار..

أشعر بأنني موصومة.. أشعر بأن حياتي قد خربت وبأن مستقبلي قد تشقق كأرض بور نسيت السحب موقعها وكفرت الأمطار بخصوبتها ولم تسقِها قطرة مطر لقرون عدَّة..

عار.. عارٌ وغضب.. وجُرحٌ وندم.

يجب ألا أهتم بتلك السيدات؛ فهن آخر الهموم وأقلها.. لقد أخذت أكثر الألقاب الكريهة.. صرت مطلقة.. مطلقة لم تكمل أعوامها الـ25 وحياتي قد انتهت قبل أن تبدأ..

سأصمت.. لن أفتح فاهي.. لن أبكي ثانية.. حتى تنتهي الفتاة من تصفيف شعري..

لولا أن هذا المكان يحتِّم عليَّ النظر في المرآة التي أجلس أمامها ما كنت نظرت إلى انعكاس صورتي بالمرآة..

أرى كائنًا غريبًا.. وكأنه مريض.. مسكين.. مشرد.. تعيس.. عبوس.. وكلما نظرت وتحققت مما أرى شكتني غصة أشفق بها على نفسي وتترقرق الدموع الغزيرة بعينيَّ..

وعلى الرغم من البؤس كله أعرف تمامًا أنني جميلة..

أنا متأكدة أنني لست قبيحة.. ومتأكدة أنني حلوة الروح أيضًا..

عادة..

على الرغم من أني أحيانًا أضايق الناس مني فإن مضايقتي طيبة.. لا تعرف الأذى.. ولا الجرح.

إذًا..

«ليه بيحصلّي كده طيب؟ ليه يا رب؟ أنا مش بعمل أي حاجة شريرة.. ليه؟!

أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم»..

هو مريض.. مريض بالخيانة.. مدمن للجنس.. نعم.. رأيت حلقة ببرنامج أوبرا الشهير عن هذا المرض.. فمدمن الجنس تمامًا مثل مدمن المخدرات.. يلهث وراء إدمانه من دون تفكير ومن دون حاجة لذلك، ومن دون وجود أي عيب بزوجته.. نعم.. هو المريض.. مريض.. يحتاج إلى علاج ونوع حياة محترم..

لكن لا أجرؤ أن أواجهه بذلك.. لن يقبل.. بل كان سيُكيل إليّ أنا اتهامات تزيد جُرحي وتتركني بلا حيلة ولا قدرة على الرد.. فأبكي.. ليصرخ بي:

– بتعيطي ليه.. انتي كل حاجة تعيطي؟ انتي عيلة.. انتي مش ست أصلاً..

نعم فهو يختال بجبروته وبجاحته دائمًا.. حتى عندما رأيت العلامة الزرقاء القذرة برقبته.. وواجهته بها صارخة فيه:

– أنا برضه مجنونة.. أهيه.. مش دي هيكي.. هتقول ايه بقى؟ حرام عليك.. أنا أتخان؟ أنا؟ طب ليه؟ بتعمل كده ليه؟

يومها أصم أذني ضحكًا وسخرية مني وهو يقول:

– مجنونة.. اتجوزت واحدة مجنونة يا ربي.. الهيكي دي منك انتي يا هانم.. طبعًا ما انتي ما بتبقيش حاسة بنفسك.. أنا خاين أنا؟ انتي اللي حرام عليكي.

يصيبني بالجنون.. أُصاب بالجنون وبالاختناق كلما عاملني على أنني طفلة صغيرة.. أو أنني مجنونة ذات داء الارتياب.. منتهى الافتراء.. يتهمني بشيء لا أعلم حتى كيف يفعلونه.. أبكي.. أصرخ.. فيرتدي ملابسه وينطلق بسيارته الرياضية الحمراء ليسهر مع أصدقائه..

وأقـضي الليـل أشـك في نفـسي.. أشـكك بروايتـه.. وأقنـع نفـسي بـأنني مخطئة.. بأنني أتوهم.. بأنني أكفيه..

ويعود..

وكأن شيئًا لم يكن.. فيأخذني بحضن وحنان..

وأكاد أتوه بعشقه، إلا أنني أتذكر العلامة.. فأتنبه إلى نفـسي كـل ثانية يغمرني بجسده..

وأفكر كل لحظة في رقبته التي تبعد عن شفتي قدر همسة.. وبأني لن أقبله حتى بهـذا المكـان.. حتـى إن وجـدت علامـة أؤكـد لـه أنهـا مـن غيري..

وعند وضوح فكرة إمكانية وجود غيري.. تـهرب من مقلـتي دمعـة ترطب مكان العلامة الزرقاء النابض.. وأسرع بمسحها والتمـسك بجفـاف عيوني..

فأفتعل النشوة.. وأرحب باندفاعه.. وتمر دقائقُ يعود بعـدها كـلٌ منا إلى أرضه..

هو ينام ويعود لنفسه..

وأنا أعود للشك فيه.. وفي نفسي..

لم أشك أبدًا لأني رأيت.. شككت دائمًا لأنـني شـعرت.. وشـعرت دائمًا لأنني عرفت.. بقلبي..

وماذا عني؟

زوجته..

الحبيبة التي تزوجها في حضور العائلة والشيخ المأذون.. يومها لم يتمالك نفسه من البكاء عندما بدأ الـشيخ في ترتيـل آيـات القـرآن الخاصـة بالزواج وخطب الخطبة.. هـذه الزوجـة الـتي عاهـد الله علـى حمايتهـا.. كيف يفعل بي هذا؟

ألم يخَفْ مـرة أن ينقـل إلـيَّ أحـد الأمـراض المقـززة الـتي تـصيب الرجال أمثاله؟

ألم يفكر أنه بإهماله لي وبعـده عـني عاطفيًّـا وجـسديًّا بالأسـابيع يمكن أن يعرضني لخطر الوحدة والحرمان والرذيلة؟ ألم يخَفْ على شرفه أن يدنس ويذوق كأسًا مُرَّة يسقيها لرجال مثله حين يضاجع زوجاتهم؟

ويتفـاخر برجولتـه! أي رجولـة تلـك؟ الرجولـة هـي الكـذب والخيانة.. والجُبن والخداع.. والقذارة والنجاسة؟

ألا يهـاب الله أبـدًا؟ ألا يفكـر فيـه؟ في حـسابه؟ في الكـبيرة الـتي يقترفها وكأنها عادة يومية عادية كحلاقة ذقنه؟

طيب.. ماذا عني أنا؟ ألا يشعر بجرحي؟ ألستُ غالية عنده ليحفظني ويحفظ شرفي فيه؟

أتذكر مرة عندما قلت له: حافظ على شرفي.. ولم يفهم القصد البَدَهي من الكلمة.

يومها كنت أبكي بحرقة ولكنني كنت هادئة.. وهدوئي يخيفه قليلاً..

يشعر بحزني ويتوجسه أكثر ودموعي الحارة ساكنة.. ولا أعلم لماذا.. لا أعلم القيمة المضافة لدموعي وأنا في قمة الألم والوهْن فلا أقدر على الصَريخ:

– انت ما بتفكرش فيَّ خالص.. ازاي بتفرط في شرفي كده؟ ازاي هاين عليك شرفي؟

– شرفك؟ يعني إيه؟ أنا مش محافظ عليكي؟ ليه؟ أنا بعرّضك لإيه يمس شرفك؟ اتكلمي.

– شرفي فيك.. افهم.. انت فاكر بس إن أنا شرفك؟ لا.. انت كمان شرفي.. كل حتة من جسمك هي حلالي وشرفي؛ لأنها تخصني أنا بس.. ربنا اللي قال إنك لما تتجوز بتبقى لمراتك بس..

– آآآآه.. ماشي ماشي بس ما اسمهاش شرفك.. اسمها كرامتك..

انتي خايفة على كرامتك.. وأنا يا حبيبتي مش بعمل حاجة تمس كرامتك.. دي أوهام.. من كتر حبك فيَّ.. هاهاهاها.

- بتضحك؟ بتضحك وبتكذب؟ برضه.. عايز تموتني؟ طيب مش فارق معاك إن ممكن في لحظة ألاقي اللي يقولي كلمتين يوهموني إن كرامتي كأنثى مش في الأرض وأبقى ادمرت أنا كمان بسببك؟ مش فارق معاك إني شريفة وأستاهل تبقى انت شريف؟ لازم أبقى قذرة وبتاعة علاقات عشان أبقى عاجباك زيهم؟ طيب اتجوزت ليه؟

- اخرسي.

قالها لي ثم هاج وماج كالشياطين ولم أفهم بين صراخه شيئًا إلا اتهامي بالجنون..

ثم أمسك بمزهريتي المفضلة التي كنا قد اشتريناها معًا من إيطاليا في شهر العسل.. أمسك بها لثوانٍ نظر لي فيها نظرة الغضبان المنتقم، ثم قذف بها نحو الحائط بقوة فتهشمت ألف قطعة..

وكأنه كان يريد أن يؤلمني بفقدانها كما آلمته بصورة رفضها عقله وكبرياؤه الظالمة..

سألت نفسي وسألته مراتٍ لا أذكر عددها.. لماذا تزوجني؟ هل لأحبه ثم يُخرّب لي روحي ويكسرني، يحطمني؟

تمامًا كما أريد أن أحطم المرآة التي أمامي فأنا أكره ما بها..
الإنسانة التي أصبحت..

والآن.. يؤلمني أن إحساسًا مهينًا يؤلمني.. يؤلمني أنني أتألم..
إحساس بأنني سأحرم من حضنه الذي أحببته وتركت نفسي لأكون فيه
طفلة صغيرة تمرح بداخله..

ولكن لا.. سأتزوج ثانية وسأدمي قلبه على فقدي.. نعم..
من أسهل الأمور.. فقد قالت لي عمتي إن محمود لم يخف فرحته
عندما سمع خبر طلاقي.. فقد كان دومًا يريدني زوجة، وكنت ألهو
بالدلال عليه حينًا وبالقسوة حينًا آخر.. سأتزوجه.. وإن لم يكن محمود،
فسيكون غيره..

أنا زعلانة منه قوي.. وهفضل زعلانة طول عمري..

– يا آنسة من فضلك هاتي القُصَة على جنب.. لِأن.. لأني بحبها
كده! (لأنه بيحبها كده).

3

أي جنة!!

نعم.. أنا طيبة.. أعرف أن أحتضن.. أعرف أن أهدئ من روع الخائف وأطيب خاطر الحزين وأخفف عن المقهور..

نعم.. أنا التي يبتسم لها الجميع.. التي يسأل عنها الجميع.. التي ينتظرها الجميع..

أنا جيجي.. واسمي يعني للكثيرين ابتسامة.. وراحة.. وملاذًا..

وأنا، أنا أحبهم جميعًا.. ويعطف قلبي عليهم حقًا.. أحنو عليهم بصدق.. أسمعهم بكل إحساسي.. وإن ربتت يدي على أكتافهم ربت قلبي على قلوبهم معها..

فأنا أعرف.. أعرف كيف ينمو حزن الإنسان حتى يفيض من العيون وتتفجر منها أنهار..

أعرف.. أعرف كيف يمكن للإنسان أن يكون وحيدًا يأكله ألم الوحدة وهو وسط الأهل والأصحاب..

وأعرف.. أعرف الغضب الذي لا يرى منطقًا.. الذي يحرق.. الذي يدمر الذات..

وأنا.. لم يكن لي نصيبٌ من حنو إنسان.. فكل الحنان نقبت عنه في ذاتي.. وأعطيته لمن حولي.. لعل شعوري بالعطاء يذيقني ولو نقطةً من حُلو الحنان.. ولعل الآخرين المتعطرين بحناني يعوضونني عن وحدة قلبي..

ولعلي أعطي وأنا أعلم أني لن ألمس مقابلاً بل ألمس هدية..

وهل يرى الواهب قدر هبته الحقيقي؟! هل يرى الواهب سعادة ما بعد الهبة.. الراحة بعد الانفراج.. الابتسامة بعد الشقاء؟ لا.. نحن نعطي ونرحل.. ولا نعرف أننا بعطائنا نغير روحًا.. حياة.. كيانًا!

ربما أكون أداة كونية لإسعاد آخرين.. ربما جئت اليوم إلى هذا المكان فقط كي أحتضن هذه الفتاة المسكينة..

ربما لهذا خُلقت..

ربما أمتلك موهبة الإنسانية.. كأي طبيب ماهر ورسام رائع ومطرب ذي صوت جميل..

أفتخر بموهبتي وحقٌ لي أن أفتخر..

حقٌ لي أن أفتخر بالشيء الوحيد الذي يُبقي شغفي على قيد الحياة..

هذه الفتاة الباكية هي أنا..

لكن على الجانب الآخر من النهر.. هي مرآتي.. هي صوتي.. هي شكل مختلف من أشكال قصتي..

ربما بكت من شعور بألم مثل الذي أشعر به كل ليلة.. ربما تبكي هي ألمًا جاء من حياة.. كما أبكي أنا ألمًا جاء من لا حياة..

فالفرح دليل حياة.. والألم دليل حياة.. والدنيا ما هي إلا حياة فقط إذا قررنا أن نشعر وسمحنا بأشواك الشعور أن تداعب أناملنا كما تداعبهم بتلات الورود!

لكنها أفضل مني.. فبكاؤها وسط سيدات لا تعرفهن هو استنجاد بأحد..

قلبها مد اليد وطلب الغوث.. أوجدت لنفسها ونسًا حين حانت الفرصة.. هو تشبثٌ ببقاء.. هو رغبة في الشفاء.. هو ثورة على الألم..

ووجدتني أنا لأحمل عنها عناء الصرخة.. ليحتويها قلبي وتهدهدها يداي ويريحها صوتي الهامس بوعود مطمئنة لغدٍ أفضل وجمال

أفضل وزوال ألم..

هي أفضل مني؛ لأني أحتفظ في قلبي بكنز مشاعر.. لا أخرج ما به إلا وقد استيقنت وحدتي.. في الليل حين تصمت همهمات الكون.. حين تنطفئ أنوار البيوت.. ويهدأ إزعاج مصباح غرفتي الأصفر.. أدَعُ نفسي تشتاق.. وأنا نائمة على فراش كبير.. أكثرُ من نصفه بارد.. لا يدفئه جسدٌ غيري..

نصفه البارد لا أحاول حتى النوم فيه أحيانًا.. بل أتركه فارغًا..

وأتصور إمكانية وجود جسدٍ آخر يشاركني الليل.. أتصور زوجًا..

لا أتصور منه إلا وجوده الذي يملأ فراغ الفراش.. ويَدَيه.. يدًا تربت على ظهري.. وكتفي.. وذراعي.. يدًا تداعب شعري حتى أنام..

كل ليلة أتصور اليد.. وجسدًا بلا ملامح يملأ الفراغ.. كل ليلة أتمنى لو أسمع أنفاس صدره تنتظم حتى يغفو.. كل ليلة أشم رائحة تشبه عطرَ جسدٍ نائم.. كل ليلة أفكر فيما لو..!

وكل ليلة أفكر في اختياراتٍ سابقة.. وإمكاناتٍ مستقبلية.. وأتألم من وحدة قلب.. ووحدة عقل.. ووحدة حياة.. وأبكي أحيانًا.. وأنا أنظر نظرة فارغة إلى السقف.. كأن سقف غرفتي هو أرضي.. التي تشهد على غربتي كل ليلة.. أبكي بكاءً حارًّا بلا صوت.. بكاءً لا تتشنج فيه عضلات

وجهي.. بكاءً تنهمر فيه دموعي إلى أعلى لترتد إلى عيني ثانية..

لكنني قد مللت النظر إلى سقف الغرفة.. بدلاً من النظر إلى جانبي..

ومللت رؤية ظلال ضوء القمر الذي لا ينير غرفتي إلا هو.. لا.. بل مللت النظر وحدي إلى ظلال ضوء القمر الذي لا ينير غرفتي إلا هو!

هي أفضل مني لأنني لا أستعين بآخر..

فإنني لا أثق بوجود حضن حنون مثلي لي! ولأنني.. ربما لأنني لم أعترف بألمي..

فحين تُسمعني أمي جملة الصباح المعهودة: «صباح الخير يا قمر.. بقى حد يصدق إن القمر دي معدية الأربعين ولسه ما اتجوزتش! ربنا يرزقك أحسن واحد في الدنيا يا قلب ماما».

حينها أبتلع الغصة والصرخة بأن تتوقف عن ترديد هذه الجملة.. وأضحك..

وأداعبها واعدة إياها ببقائي تحت قدميها حتى أدخل الجنة..

أي جنة؟!

جنة ربما سأبقى فيها وحدي أيضًا..

الفتاة توقفت عن البكاء!

يا إلهي.. لقد تعبت دموعها وأبت أن تنهمر.. أو لقد فرغت من مخزون اليوم الذي بلل قميصي..

فالوقت يصفّي مجرى الدمع من آلامه..

ولقد اعتمدت كثيرًا على الوقت كي يكوي آلامي فأفقد الشعور لأرتاح قليلاً من شوقي وفضائي.. كنت أحادث نفسي:

فليمر الوقت لأعتادَ خريطة خَطّها عنادي.. ورَسْمًا بريشة الافتقادِ.. وطريقًا يُشعله الرمادُ.. وغصة يجددها البعادُ.

فليمر الوقت لأعتادَ.

فليمر الوقت..

لكني أغضب من الوقت.. يؤلمني الوقت.. وأغضب من الدنيا.. ومن نفسي.. وأصرخ: وماذا يمكن أن يَضير الكون إذا تحقق لي حلم واحد؟!

وماذا سينقص من بريق نجمة إذا رقصت معي ذات ليلة؟! وماذا يمكن أن يُغيِّر البحر إذا سرق دموعي إلى الأبد وعانقت زرقته عينيّ؟!

أصرخ وأسأل ولا أجد الإجابة.. وأنظر إلى نفسي..

يا مرآتي يا مرآتي.. هل أنا جميلة كما يقولون؟!

ها ها.. حتى المرآة تؤكد كلامهم.. وهباءً أحاول أن أصدق.. ودائمًا ما آتي إلى هنا كي أدقق في حيثيات جمالي المزعوم.. كي أؤكد على ملامحي وشعري وجلدي أن تؤدي الدور على أكمل وجه..

فربما وجدت لقصتي بطلاً.. يملأ فراغ الليل.. وألمس يده حقًا.. ويرى معي ظلال ضوء القمر الذي لا ينير غرفتي إلا هو!

4
علبة سجاير وعشرين جنيه

يادي الزباين وحواديتهم.. اللي يشوف الواحدة من دول من بره ما يشوفهاش من جوه.. الذواق واللبس والعربيات المركونة أُدام المحل والموبايلات الحديثة آخر حاجة.. كل ده هجص.. كله منظر..

كل اللي كنت بحسه زمان لما بشوف الهانم من دول اكتشفت بعد شوية من شغلي ده إنه أونطا..

ما بقاش نفسي أبقى زيهم ولا حاجة وما بقتش أنبهر بحالهم.. زيِّنا زيهم.. اللي ساكنة في الزمالك أو المعادي زي اللي ساكنة جنبي في كوتسيكا.. اللي راكبة عربية موديل السنة زي اللي بتركب المترو معايا.. اللي معاها آي فون زي اللي معاها موبايل صيني بشريحتين وتليفزيون..

كله في الهم واحد، وكله أعبط من كله، وكله بياخد على قفاه.. هي مناظر بس اللي فارقانا عن بعض..

يعني نُهى دي مثلا اللي لمت عليها الناس وقعدت تعيط زي العيل

التايه زيها زي مروة بنت عم سعد بالظبط.. الفرق إن مروة رقعت بالصوت لمت الحارة كلها ودلقت على نفسها جاز أما عرفت إن جوزها اتجوز عليها أم أحمد صاحبة محل الفراخ.. كان عندها حق.. يتجوز عليها وليّة أكبر منها بعشرين سنة ليه؟ عيبة في حقها يعني.. لأ ويتجوز عليها وهي لسه ما ربعنتش..

يومها ولا عشرين نفر راحوا لأم أحمد وقعدوا يشتموا فيها لحد ما الوليّة سكّرت المحل وطلعت بيتها من الخوف.. يومها أهل الحارة لحقوا مروة.. يومها أمي خدتها في حضنها وقعدت ترقيها بكلام ربنا لحد ما هديت..

زي الآنسة جيجي ما عملت مع نُهى..

قال والكل قاعد يأنب فيّ إني مش راضية أتجوز.. وأنا هبلة؟ لا طبعًا.. أتجوز واحد عشان كام حضن ولا عيل أخلفه وبعدين يقعد في البيت عاطل زي جوز أمي.. وزي أبويا من قبله.. وأنا أشقى وأصرف عليه.. بعدين أقفشه بيوَسَّخ بره؟ أيوه.. ما هو ده الحال مع كل الناس.. وده اللي كان هيحصلي مع عزت..

اتهفيت في عقلي وحبيته.. ولما قاللي ظروفه وحشة كنت بجيبله علبة سجاير وأحطله في السولوفان بتاعها عشرين جنيه كل يوم..

كنت في قرارة نفسي عارفة إنه بيشتغلني بس كنت بصدقه لما بيقوللي إنه بيدور على شغل ومش لاقي.. وصبرت عليه وكتبنا الكتاب.. وفضل على حاله تلات سنين.. أنا أشقى وهو ياخد السجاير والعشرين جنيه..

ويوم ما روحت لزبونة أعملها شعرها في بيتها عشان كانت كاسرة رجلها شوفته ع الكورنيش مع بت معفنة ما استغنيهاش خدامة عندي.. كانوا بيشربوا ساقع.. طبعًا بالعشرين جنيه بتاعتي.. وتنيتني وراه لحد ما اطلقنا.. وبقيت مطلقة وأنا لسه بنت..

طب ليه؟ أعمل في نفسي كده ليه؟ عشان يبقى في حياتي واحد يحبني وأحس معاه إني مُزَّة؟ طب مانا بعرف أعمل ده من غير جواز..

اشتريت عدسات خضرا وبلبس جينز آخر موضة وبسيب شعري أمرار كده أبقى خارجة فيها بعيد عن بيتنا.. كتير بيبصولي إني مُـزَّة.. وببقى مبسوطة من غير ما حد فيهم يلمس شعرة مني.. ولا حتى ضحكة صفرا تنقطهم.. بيكيفني الإحساس ده.. بس.. مش هدخل نفسي في مشاكل من نوع تاني.. أصلا أنا مش عندي وقت.. بشتغل ييجي 12 ساعة كل يوم وهو يوم واحد إجازة أتزوق فيه وأخرج..

كل الرجالة عندي زي بعض.. أول ما الواد من دول يجنن عليا أنبسط.. وبخ! ولا يطول مني حاجة..

ما عدا.. ما عدا الشيخ عماد بتاع البرفان.. طول بعرض.. وريحته على طول حلوة.. طباخ السم بقى.. هو آي نعم ملتحي ودقنه طويلة أوي بس متسرحة وبتلمع زي عينيه بالظبط..

الشيخ عماد مش بيبصلي إني مُزَّة.. بيبصلي بصة تانية مش فاهماها.. بصة مش باينة ومش وسخة.. عمره ما رسم عليًّ ولا قال أي كلام.. بس كل ما أروح له عشان يعملّي خلطة عطور أحس بحاجة كبيرة أوي شداني ليه.. وعمري ما هنسى يوم البويزون.. كنت شميت ريحة على واحدة صاحبتي وسألتها قالت لي إنها عملت خلطتها عند الشيخ عماد واسمها بويزون..

يومها.. كنت عاملة خط غامق حوالين شفايفي قبل ما أحط الروج.. وأنا بحطه كنت بفكر فيه.. في إني نفسي يبص لشفايفي.. وفكرت كمان إن ده مش بتاع صياعة.. وفكرت إنه الوحيد اللي ممكن أغير عشانه رأيي وأتجوزه..

رُحت له.. وقفت أُدامه غير ما بقف أدام أي واحد.. بيبقى نفسي رايح ومرتبكة وكفوفي عرقانة وابتسامتي سابقاني من قبل ما أقرب ع البترينة بتاعته.. سلمت عليه وقلت:

- ازيك يا شيخ عماد.. أنا عايزة برفان البويزون.

عينيه ضحكت ولمعت أكتر وهو بيرد السلام.. وبصلي بصة فيها

معاني كتير أوي وهو بيرد عليَّ:

- ما بلاش النوع ده.

فرحت من جوايا انه مهتم بيَّ ومش عايز يبيع لي وخلاص، وكان نفسي أقوله ينقيلي هو على ذوقه.. بس قلت بلاش دلع ليكسفني.. وسألته:

- ليه؟

رد عليَّ بطريقة اللي مش عايز يبوح.. وقال:

- أصله تقيل أوي.

هو كمان بيدلع أهُه بس بطريقة رجالي.. ومش أي رجالي.. فضحكت ورديت:

- لا ما انا شميته على واحدة صاحبتي واخداه منك وعجبني.

- أنا بس بنصحك كأخت.

- هاهاها.

- أيوه أصله فواح أوي.. كل الناس هتبقى شماه عليكي!!

كنت متأكدة إن وشي جاب ألوان.. بيغير عليَّ.. الله.. كان إحساس حلو قوي..

كان نفسي أحلف له ميت مصحف إني مش هحط أي برفان تاني طول عمري إلا لجوزي.. بس ضحكتي المكسوفة كانت فضحاني كفاية.

بصلي جوا عيني كأنه بيبوسني وقال:

- إذا اتضايقتي أنا آسف.. ما تآخذنيش.

رديت بصوت يا دوب عرف يطلع.. وبصيتله أنا كمان في عينيه كأني بقوله فهماك.. فهماك وبموت فيك.. وبعدين قلتله:

- لا.. طب اديني نوع تاني.. على ذوقك!

حسيت بكهربا في جسمي كله.. بيخاف عليَّ.. بيغير عليَّ.. طبعًا كلمة أخته هجص آخر حاجة..

اللي بحسه في الخمس دقايق اللي بقف عنده أشتري فيها، أحلى من ألف جواز وعيال وهم وقرف..

ويا إما كهربة الشيخ عماد يا إما بلاها.. واديني مُزَّة ومتزوقة وكسيبة..

هعوز إيه تاني؟

ربنا معاكي يا نُهى.. يا رب تعقلي كده وتشوفي مصلحتك وتفوقي من اللي انتي فيه..

5

زيارة مقدسة

لم أنطق.. لم أتحرك.. وأعلم تمامًا أنه لم يبدُ على وجهي الانزعاج..

وأنا أعرف تمامًا لماذا تحرك الجميع من حولي في صخبٍ امتزج بصخب الفتاة المنتحبة ليهدئوها.. وبقي مكاني صامتًا.. ساكنًا.. كأنني في فقاعة غير مرئية تحجب الهواء والصوت..

تعودت على وجودي غير المرئي. لا أحد يكاد يشعر بي.. فأنا نفسي لم أعد أشعر بي منذ زمن بعيد..

أدخل محلاً مثل هذا بصمت.. أجد لنفسي أقرب كرسي لأجلس فيه بصمت.. وأنتظر حتى ألفت انتباه إحداهن فتسألني عن طلبي.. أقول لها كلمتين فقط: «هعمل سيشوار» ثم أعاود السكون.. إن غابت لا أسأل.. ولا أعلق على عملها.. فقط أنظر إلى المرآة أمامي.. أسرح في تفاصيل

وجهي.. خطوط دقيقة خطها الزمن على جبهتي ولم تصل بعدُ إلى عيني وشفتيَّ.. وأنظر إلى حركة يديها.. ثم أنظر إلى يدي وألمح عروقها النافرة وأظافري الباهتة من أثر طلائها المستمر.. ولا أسمع إلاّ أفكاري.. لا أنتبه أبدًا إلى الحوارات النسائية المعهودة.. ولا أنتبه إلى السيدات ذوات الحجاب اللاتي يدخلن مثلما يخرجن.. بلا زينة مكشوفة.. ولا أرد على محاولة صاحب المحل لفتح حوار معي حول أحدث مستحضرات العناية بالشعر التي لديه وتناسبني كثيرًا.. فمحاولاته المستميتة للتسويق لا تجدي معي؛ لأنه لا يسمع مني كلمة بعد سرد طويل منه.. فقط أومئ برأسي مبتسمة ابتسامة باهتة.. وسرعان ما يمل فيجد غيري تعيره انتباهًا صادقًا..

لا أحرص على شعري من التلف.. ولا أهتم بالمستحضرات.. فقط أصففه.. وأحرص على ذلك بقدسية يومين أسبوعيًّا.. يومي الاثنين والخميس.. روتينًا.. ضرورة لبقاء ما بقي مني.. أو حبًّا في البقاء.. وكأن خروجي عن الروتين أو توقفي عنه يمكن أن يوقف حياتي.. وكأن روتيني أصبح القلب النابض فيَّ.. إذا توقف حتى لأشعر بما حولي.. أموت!

روتينًا أتساءل: متى سأتوقف عنه؟

أعندما أكون بعمر السيدة ذات الخصلة البيضاء التي أراها كلما أتيت

إلى المحل؟ تبدو في السبعين أو أكثر.. يبهرني أملها.. طاقتها التي تقودها إلى التزين بهذا التفاني.. وهي كأنها صورتي بعد سنوات إن عشت طويلاً..

كالفتاة التي هي صورتي منذ سنوات..

ذكرتني تلك الفتاة المنتحبة بنفسي في الصغر.. تشبهني كثيرًا آنذاك..

كنت مثلها.. شابة جميلة متأنقة أشعر بأنوثتي.. وتمامًا مثلها.. التف المقربون من أهلي حولي عندما تشرّخت حياتي وتهشّمت روحي.. حاولوا إلهائي.. سؤالي.. الضغط عليَّ للبوح.. حاولوا استمالتي نحو ماضٍ زاهٍ كالفراشات وبنفس هشاشتها.. إلا أني لم أدعهم.. لم أسمح..

كان الجرح غائرًا فيَّ وأفقدني النطق.. ومع الوقت أفقدني الإحساس بالحياة بداخلي..

وكيف كان لي أن أنطق بما حدث؟ فحين نطقت لأبي بعد أيام، وعندما لملمت ما بدا لي آنذاك أنه شجاعة.. ناولني أبي يدًا.. لا لتربت.. بل لَتصفع المنطق مني.. والنُطق!

فخاصمت الكلام إلا للضرورة.. خاصمت كل ما كان يضغط على الوجع ويمرّغني فيه.. خاصمت مصادر الجروح.. خاصمت الناس..

وأصبحت أنا.. متحجرة الملامح والجسد.. رخوة الروح معطوبة..

مخدرة من جُرحٍ وبجُرحٍ..

أعطيت صاحب المحل خمسة وثلاثين جنيهـا قيمـة أحفظهـا عـن ظهر قلب.. ودسست خمسة جنيهات بجيب الفتاة التي صففت شعري..

نظرت بطرف عيني نظرة أخيرة إلى الفتاة المنتحبة.. نظرة وداع.. نظرة دعاء بأن تكون أفضل.. بأن تكون نهايتها أفضل مني!

وفتحـت البـاب.. وقـابلني نـسيم بـارد يختلـف عـن جـو المحـل الخانق الحار.. وبدأت المشي مسافة أعرف طولها خطوة بخطوة.. مـسافة ترهق قدمي ذواتي الأعوام الخمسة والأربعين..

يتطـاير شـعري المـصفف منـذ دقـائق فـلا أهـتم.. أفكـر أن أشير إلى «تاكسي» وأرحم قدمي المتورمتين بدوالٍ مرضية مزمنة.. إلا أنـني أعـدل عـن هذا.. وأستمر بالمشي إلى منزلي الذي يبعد محطتين عن مكان «الكوافير».

أعاقب نفسي بإيلام جسمي، أم أؤلم جسمي لأشـعر بأنـه لا يـزال جزءٌ بي ليس فيه خدر؟!

كنت أود لو كان المشي يُذهب عني ذكريات ما كان.. كنت سـاعتها مشيت ساعاتٍ غير معدودة..

إلا أنه لا يسكّن مشاهدَ قديمة تمر بلا توقف برأسي..

هو فقط يهمس لي بالحياة التي تمر من حولي.. حركة الناس المارين بجانبي والسيارات وأصوات الشارع.. وقع الخطوات.. كلام وضحك وهتاف ومناداة وصخب.. حياة!

حياة أشعر فيها بصدق؛ لأن واقع أن هناك حياة هو الشيء الوحيد الذي أحن إلى تصديقه..

على الرغم من أني أشعر أن كل ما يتحرك بجانبي سريع وعالي الصوت إلا أنا.. في الفقاعة ذاتها.. لا مرئية.. صامتة..

فما شلّ حياتي هو عجزي عن رؤية ما بعد الجرح.. وكأن نزف غطاء أضاع ملامحي.. أو أن الجرح موَّهني..

أو ربما أنا أعلم أنني لا أستحق..

فمن يحتمل العراء يستحق السكن..

ومن يرَ اللا ماسي جوهرة يستحق الكنز..

ومن يعنِ الحروف يستحق البوح..

ومن يثق في الروح يستحق الحُب..

وأنا لا أثق في الروح.. فلا أستحق الحب.. والحياة هي حب.. هذا الإقبال عليها بالرغبة فيها هو حب.. وأنا فقدت ذلك..

تمنيت كثيرًا أن أقول مثلما يقول الناس: «يا ريت»..

يا ريتني ما كنت سمعت كلام ماما واخترت الرُتبة والنفوذ..

يا ريتني ما كنت صدقت قد إيه هو قوي وراجل ودُنيا كاملة أنا حابة أبقى عايشاها..

يا ريتني ما كنت سمحت للعساكر يشترولي حاجات ويدخلوا بيتي.. بس أنا كنت أعرف الكلام ده منين؟!

يا ريتني ما كنت لغيت معادي يومها ورجعت البيت بدري..

يا ريتني ما فتحت بالمفتاح.. يا ريتني ما دخلت الأوضة من غير ما أنادي عليه الأول.. يا ريتني ما شفته.. معاه!!

يا ريتني مُت!!

يا ريتني مَوّته!!

ولكن.. «يا ريت» كلمة لا يستخدمها إلا المُرفهون.. مرفهون باختيارهم أو مرفهون برغبتهم في المحاولة بسيناريو آخر.. لكني لست منهم..

أين المنديل؟

لأجفف عيوني.. يجب ألا أعتاد مشاركة دموعي مع الناس

بالشارع الغريب الحي!

حتى إن كنت في فقاعة صامتة غير مرئية..

حتى إن كان ما بقي من أنوثتي ليس أكثر من زيارتي المقدسة لـ«الكوافير»..

حتى إن قتلتني قدماي.. وتاهت الرؤية.. وماد بي الطريق..

وسقطت!

6

شفاه مبللة قليلاً

وماذا أبالي إذا انقسم «الكوافير» إلى قسمين يفصلهما ساتر من قماش؟

ماذا أبالي إذا سكن الجانب الآخر فتيات في عمر بناتي قررن تغطية شعرهن والبقاء مع بنات جنسهن دون أن تلمس رءوسهن أصابع رجل؟

ماذا أبالي إذا نظر لي الجميع باستغراب لأنني جلست في صدر المحل وأمام بابه من دون أن أغطي عقلي بقطعة ثياب ملونة وقد سلمت رأسي لمحترف الشعر؟

لن أبالي..

لا أبالي..

فقد تقدم بي العمر وطال بي الأمد ولقد اخترت الجانب الأمامي..

فآتي إلى هنا وأصبغ شعري الطويل بلون أسودَ حالكٍ وقورٍ يشبه أعوام عمري التسعة والستين.. بل وأترك في ظلمة شعري خصلة ناصعة البياض كالهلال بمقدمة شعري تؤكد شيبي، كما ميزتني تصفيفة شعري المعقوص في دائرة سميكة تجمع خصلاته الطويلة بأناقة..

وآتي إلى هنا كي يظل حاجباي مرتفعين ولتشرق ابتسامتي بشفتين لا يظللهما أي زغبٍ كان ولتلمع أناملي ولتُنعَّم قدماي.. فأنا امرأة حتى النخاع.. امرأة لن ترضى أن تؤخرها علامات الزمن ولن تقنع برؤى الآخرين لما يجب أن تكون..

قد أبالي بغربتي بهذا الجانب من المحل لأنني وددت لو استطعت أن أرى الفتاة صاحبة البكاء والنشيج وأرى السيدة الحنون التي كانت تُهدهدها وأرى الأخرى التي احتد صوتها..

أبالي برؤية ملامحهن، فقد أكتب عنهن مقالا من مقالاتي الشهيرة.. وقد أدعوهن إلى مأدبة ثقافية من مآدبي المشهورة.. لنتحدث عن مشاكل النساء كما يتوقع منا دائمًا المجتمع الذكوري.. أن تجتمع السيدات ليعددن مشاكلهن مع الرجل.. وحيواتهن مع الرجل.. وتحديات عملهن مع الرجل.. ويشتكين غياب الرجل وافتقادهن معناه على الرغم

من كثرة الرجال..

فلم يلمع نجمي في سماء الصحافة إلا حين سلمت راية معركتي الفكرية أن أكون من أحسن أدباء مصر.. ورضيت أن أحظى باللقب الذي خصني به الرجل.. أن أكون أفضل كاتبات الأدب «النسائي».. وقتها رضيت.. فقط لأنه في خضم المعركة كنت قد انهزمت في معركة أخرى.. فلم أعد أبالي!

وهنا.. لا أبالي.. لم أبالِ..

إلا اليوم.. أبالي.. ربما.. أبالي أن أشعر أني منهن!

أن مكاني مع سيدات ما زلن يحلمن ويُردن ويحزنَّ ويفرحن ويضحكن ويصرخن ببكاء كالسوط، ويتزينَّ لرجل..

لا أمحو الوحدة بالغريبات.. فقط.. أتشبث بحلمهن..

ربما مللت التزين لعدسات الصحف والتلفاز.. ربما اشتقت إلى أعين تتحسس كل ما فيَّ كما تتحسس السيدات خمائل حرير وإستبرق..

آآآه.. مر زمن طويل.. ومر الكثير على آخر عهدي بالحياة الحقيقية..

وتمر الذكرى.. كأفلام قديمة لا لون لها إلا الأسود والأبيض.. تمر ذكرياتي كلاسيكية مثلي..

أتذكر رشاقة كلماته.. وأناقة تعبيره.. وعذوبة الشجن في صوته.. وحنان وشغف لساته..

وأتذكر معناه بقلبي..

كان الظل ودفئي وشتائي.. وكان خِلّي وخلجة قلبي وعطرًا بصدر ردائي.. وكان أنفاسي وتهدُّج أنفاسي.. وكان تيهي وعشقي..

أتذكر كل ما فيه كأنه معي الآن..

وأتذكر..

أتذكر كأسه الملتصقة بيديه دائمًا..

أتذكر رائحته التي كانت تملأ المكان كله.. رائحة عطره الذي طالما اجتذبني من جنبات قلبي.. عطر امتزج بنفاد الخمر..

أتذكر ترنحه.. الذي عرَّض خطواته الثابتة القوية لموجات الاختلال..

أتذكر لمعة زجاجية بعينيه وكأنها بريقُ عين سمكة.. غشاء لامع سميك ينزع الإحساس من النظرة..

وأتذكر أكثر ما كنت أحب فيه.. شفتيه المبللتين قليلاً.. الغامقتين الحمراوين كثيرًا.. الممتلئتين شهوةً وقوةً وإصرارًا..

وأتذكر رفضي وكرهي وجنوني لكأسه..

وأتذكر رفضه وكرهه وجنونه لكرهي كأسه.. وأتذكر كل مرة سمعت فيها بأذني حكايا اجتر فيها أحزانًا ومآسي وآلامًا حكى تفاصيلها مراتٍ عدة.. وكل مرة تختلف عن الأخرى.. وكأنه يشرب ليتذكر ويستعذب الألم وصور الجروح القديمة..

وكأنه يشرب ليجد أظافرَ يفتح بها ندوبًا قديمة.. ندوبًا لا أعرف حقًّا مدى صدقها.. فروايات السكير ليست دائمًا عنانًا أطلَقَه لصندوق الأسرار..

وأتذكر أيضًا بوادر الإفاقة.. وصدى وعدٍ وتأسفٍ واعتذارٍ شابه سُكر..

وأتذكر قُبلة.. من حلاوتها حلّت مرارة طعم الخمر العالق بشفتيه.. من طراوتها وحرارتها بخرت رائحته المزرية..

أتذكر القبلة أكثر ما أتذكر..

وأتذكر حبًّا يتبعها يطيِّر العقل..

أتذكر دمعة متألمة تسقط وتنصهر مع القبلات وتمتزج بما علق على لسانه من خمر..

دمعة بها حبٌ كثير ومُقت كبير..

دمعة حمدت ربّها على أنني أنا التي يغرقها بموجه وليست إحداهن، ودمعة تعنهت لأنها علمت أنه يغرقني فقط لأنني أنا التي هنا وليست إحداهن..

دمعة كرهت فجوره وأحبت بحوره.. دمعة ودعته من قبل أن أتجرأ أن أمزق قلبي وأودعه..

وأتذكر كيف انتهى الحب.. حزينًا منكسرًا يجر أذيال خيبة وفشل وعُهرٍ مستتر..

أتذكر كيف انتهى الشعور بشفتي.. كيف انتهى الإحساس بجسدي.. كيف انتهى قلبي إلا عن ضخ سائل الحياة بجسمي..

أتذكر الأيام التي استحالت أسابيع وشهورًا حتى أصبحت أعوامًا سرقتني وماد بي عمري..

أتذكر أنني لم أعرف – منذ استسلمت لضرورة رحيله – إلا الأدب النسائي المصطنع وبناتي..

فلم أنتبه إلى حب غيره ولم أرَ شفتي غيرِه ولم أشتهِ قبلة غيرِه..

وكبرت.. وكبر العمل وكبرت بناتي..

وتكررت الساعات والكلمات والأفكار.. وقررت بناتي الهجرة مع

الأزواج..

وبقيت أنا.. بظلمة شعري.. وبريق هلالي.. وظمأ شفتيّ.. تحيطني روائح زهور.. وعيون بيضاء.. رائقة بلا لمسة.. عيون لا أراها مهما رأتني..

وبقيت أنا بهذا الجانب من المحل.. لا أرى الفتاة الباكية نحيبًا.. ولا صديقاتها ذوات الحكايا والقلوب والشفاه المبللة قليلاً..

7
قطعٌ عرضيٌّ غائرٌ

بكاؤها حرَّك مشاعري.. حرَّك شفقة تجاهها وامتنانًا داخليًّا..

ربما أكون أنا وإقبال، صديقة عمري، الوحيدتين اللتين لم تعرفا هذا الجُرح أبدًا..

فهو جرح لن يُخاط.. لن تلأمه دهانات الأطباء..

جرح لن يَدمَى ولن يَنبضَ ألَمًا ولن يفقدَ الإحساس تمامًا إلا من تنميلٍ مزعج لا هو بألمٍ ولا هو بشفاء..

تمتمت: «الحمد لله»..

شعرت بحبٍّ جارفٍ تجاهَه.. شوقٍ وتوقٍ إلى حضنه الدافئ.. إلى تقبيل يديه وشكره على كل الإخلاص الذي خصني به طوال العمر..

وأنا هنا اليوم لأتزين له.. علّ لون شعري الجديد وقصته يؤكدان

له كم أحبه.. وكم أنا امرأة أهتم به وأتزين من أجله.. وأنني لم أفقد رونقي.. إنني أنبض حياة من أجله.. وعلّه يهتم بشعري وأظافري الملونة وجلدي الناعم عمّا سوى ذلك، مما لا أستطيع أن أزيّن..

ثم خِفتُ.. تملكتني رهبة وراحت روحي إلى منبع الخوف.. فقد فكرت بإمكانية أن يفعلها.. أن يضعف.. أن يرغب..

أن يحن إلى ثديين وقالبٍ وقسمات تفيض شبابًا لم يتدلَ جلدها ولم يرتخِ عضلها..

لكني تذكرت ابتسامته.. أول ما عشقته فيه وأكثر ما علّقني به طيلة تلك السنوات..

سنوات الولادة الأولى.. فأحلى ما في الدنيا يكون وليدًا.. بداية الحب.. أولُّ الحلم.. طفلٌ صغير.. فجر يوم جديد.. نبعٌ تدفق صغيرًا..

ولكن.. أقسى ما في الحياة.. الفَجْأة.. سحب النعمة منك.. خطف الحياة كما تعرفها وتغيُّرها.. صدمة كسر التعود على الارتكان إلى معلوم..

لم تغِب ابتسامة ثغره يومًا.. فكانت لي السند والمعلوم.. لم تغِب طوال السنة الماضية التي تغيرت فيها حياتي للأبد.. وحياته هو أيضًا..

ابتسمت.. طردت فكرة الخوف من قلبي تمامًا، خاصة بعد أن

تذكرت كلماته الليلة الماضية..

وابتسمت وأنا أتذكر ابتسامة فمه وعينيه وهو يثلج صدري بحنانه..

حتى وشفتاه ترتجفان خوفًا عليَّ، كانت شفتاه مبتسمتين تحاولان أن تنقلا طمأنينة لم يمتلكها..

ثم عدت وتذكرت قلقي وخوفي طيلة الأسابيع السابقة على البارحة..

كنت أرى ابتسامة شفاه رافقتني معظم سنين شبابي وأول أعوام شيبي.. الابتسامة ذاتها التي رحبت بي في حياته، والتي هنأتنا على أول مولود صم آذاننا من صراخٍ عَذب.. والتي رافقت النجاح العملي ولعب الأطفال والتي ارتجفت سعادة يوم خِطبة البنت..

كنت أعرف الابتسامة؛ فهي ابتسامة من أحب..

ويوم أن فقدت ثديي.. وعثرت على فرصة أخرى للحياة.. ظللت أبحث عن ابتسامة عينيه.. فقد كنت أحتاج إليها لتطمئنَني أنني لم أفقد حب زوجي لأنوثتي.. فأنا أعرف أنه يحب روحي.. يحب شخصي.. يحب حبي..

فقط كنت أحتاج أن أرى الابتسامة.. كنت أحتاج لعَونها كي أقبل

أنوثتي بشكلٍ آخـر.. كنـت أحتـاج إلى بريقهـا كـي أحتمـلَ بريقًـا ضوؤه مختلف..

فقد شعرت طيلة أشهر من القلـق والعـلاج أنـني أكـاد أنطفـئ.. أن الدواء الذي حُقنت به ما هو إلا ماء نار يحرق سنوات عمري.. لكني أيضًا شعرت أن حياته تمدُّني بحياة.. وأن قلبه يدق فيَّ.. يدق في روحي حياة..

لكني ولأول مرة منذ أن رأيت عينيـه.. أحتـار فيهمـا.. أحتـار في بريقهما.. أما أراه فيهمـا ابتـسامة، أم ظـل ابتـسامة، أم وَهـم ابتـسامة؟ غابت عني الثقة وغاب عني المعنـى وأصـبحت بـلا ثـدي وبـلا فهـم للغـة عينيه..

مع الوقت، اندمل جرحي ولم يندمل قلقي.. تحسست مكان ثـديي الأيسر لأول مرة.. هالني عدمُ وجودِه.. تعرفـت علـى قطـعٍ عرضـي غـائرٍ أعلن واقعًا مريـرًا.. تحسـست جُرحـي تحـسُّس الكفيـف لطريـق وعـر لم يختبرْه.. وأحسست بمعنى جديدٍ.. معنى وحيد.. معنى بـاردٍ قـاسٍ يـئن من مرارة الفقد.. وتمنيت لو أرى ابتسامة عينَي زوجي..

وكانت هذه أولَّ ليلة بعد أن نزعوا عـني غطـاء الجـرح.. وبعـد أن نزعوا عني عُقَد الجرح.. أول ليلة أضع يدي عليـه.. وأقـرأ بأنـاملي غُـرَزًا برزت وانخفضت بلحمي كاتبة قصة جديدة بلغة الجروح.

وكنت أرقد وحيدة في فراشي لا أرى من الغرفة شيئًا؛ فقد آثرت الظلام، أترقب وقع خطوات معلنة وصوله إلى البيت.. ومعلنة بدءَ امتحانٍ أموت خوفًا من الرسوب فيه.. أو بالأحرى أموت خوفًا من رسوبنا فيه..

وجاء.. بلا صوت.. بلا كلمة.. ورقد بجانبي.. شعر بي مستيقظة فأضاء ضوءًا خافتًا سمح لي برؤية عينيه.. ومجددًا احترت فيهما فنقلت نظري إلى شفتين قد ابتسمتا فهدّأتاني.. وقلت على الرغم من غصة خنقت كلماتي:

– أتراني ناقصة؟

لم يرد..

مد يده بالحنان ذاته الذي أمسك به وليدنا ساعة ولادته..

مد يده بالحنان ذاته الذي ربت به على شعر ابنتنا.. وبالكف الحانية ذاتها التي طالما لمس بها قلبي..

مدّ يده وتحسس مكان جرحي من فوق ثوبي محلَّ ما فَرُغ وانسدل..

تحسس عدم الوجود.. تحسس الفراغ المهيب لما راح ولن يعود..

خفق قلبي حتى كاد يُبعد يَدَه.. كُفرًا بالاختفاء.. مقتًا للنقص.. إنكارًا للفراغ..

تركني وذهب إلى النافذة ففتح ستائرها تمامًا.. وأنارت أضواء الشارع الغرفة شيئًا ما..

ورأيته.. بابتسامته الرائعة التي بها بريق ألف نجمة..

وعاد إلى الفراش.. وتدثّر تحت الغطاء.. واقترب مني فالتصق بي..

ونظر في عيني وكأنه ينظر داخل روحي.. ورأيت ابتسامة عينيه التي اشتقت أن أعرفها وأنهل منها دون حيرة..

وشعرت بيده التي تعرف طريقها جيدًا تنساب كالماءِ الدافئ على جلدي، فقد رفع ثوبي قليلاً ثم أدخل يديه تحت ثوبي ثم مدّ يدَه إلى أعلى حتى وصل إلى ما كان صدري..

أراح كفه وأصابعه التي شعرت فيهما برجفة خفيفة تكاد ألا تلاحَظ لولا أني أحفظ كل ما فيه حتى أدق خلجاته..

ثم قرأ غُرَزي التي برزت وانخفضت بلحمي كاتبًا قصة جديدة بلغة الحياة.. ثم رأيت بريق دمعة كلُّها حبٌ تزاوجت مع دموعي التي سالت بعمق..

وقال:

– ماذا كان سؤالك يا حبيبة العمر؟

ارتجف صوتي.. وبمشقّةٍ همست:

- أتراني ناقصة يا كُلَّ العمر؟

اقترب بالابتسامتين ذواتيهما.. ابتسامة عينيه وابتسامة شفته العليا؛ حيث كانت الشفة السُفلى تقاوم دمعة ثانية.. وقال وهو يقبل شفتي بأعظم ما في القُبل من حُب:

- لديكِ أكمَلُ قلب!

8

حبيبي حماده

الحمد لله.. الحمد لله..

الواحد في نعمة.. ما شاء الله لا قوة إلا بالله.. الحمد لله.. الحمد لله..

اليومين دول مش عارفة الدنيا جرى فيها إيه.. كله طلاق طلاق طلاق.. الواحدة من دول تبقى لسه يا دوبك متجوزة من سنة ولا سنتين وهوب.. المأذون اللي جوِّز هو اللي بيطلق..

لا حول ولا قوة إلا بالله.. صعبانة عليَّ والله.. قلبي اتقطع عشانها وحياة ولادي.. بس الواحد أما يشوف حال الناس دي يعرف النعمة اللي هو فيها.. الحمد لله..

– رانيا.. يا رانيا.

– أيوه يا مدام إقبال.. تحت أمرك..

- بصي حبيبتي.. أنا هعمل كله باديكير ومانيكير وكله.. هصبغ كمان.. اديني البتاعة دي اللي فيها ألوان الصبغة أختار لون جديد..

- إيه ده يا مدام إقبال؟ ما شاء الله عليكي.. يعني هنعمل النهارده كل حاجة.. كل حاجة؟

- آه.. بالمرة بقى.. بقالي كتير ما غيرتش.

- أزغرد يا ناس.. والله كان نفسي أقولك كده برضه هاهاها.

- طب هاتي طيب..

- رايحة أهه.. هاهاها.. أكيد في مناسبة حلوة ولا إيه.. يا زينب.. هاتي طبق ميه سخنه وشامبو كتير هنا لمدام إقبال، هتعمل باديكير..

شوف ازاي البنت بتغمزلي.. من شر حاسد إذا حسد.. الحمد لله.. حمادة جاي بكرة وهيلاقيني إيبييه.. ما فيش بعد كده.. أيوه.. وأحسن حاجة إن عبال ما يوصل العيال هيكونوا ناموا.. آه.. أدلعه شوية.. حرام.. شوف الرجالة بتعمل إيه في ستاتها وهو يا حبيبي بقالوا خمستاشر سنة جواز لا عمره قصر معايا في حاجة ولا زعلني بكلمة ولا مد إيده.. حبيبي يا حمادة.. والله وحشني.. آه.. والله أنا مقصرة معاه.. الواحد ما بيعرفش قيمة جوزه غير لما يشوف بلاوي الناس.. والله حمادة ده جميل.. أهو أنا

أهــه.. لا حلــوة ولا صــغيرة.. يعــني خــلاص.. العمــر بيجــري والعيــال هلكوني.. وهـو يـا حبـيبي لا يـوم بـص بـره ولا يـوم سمعـت عنـه حاجـة وحشة.. شغله وبيته وعياله وبس..

- اتفضلي يا مدام إقبال يا قمر..

- هاهاها.. هاتي يا بكاشة.. هاهاها.

- والله مُزة أكتر من أي مُزة هنا..

- وموطية صوتك ليه يا أونطجية؟ هاهاها.

- بصي حضرتك.. افتحي تاني صفحة.. الأحمرات هتبقى عليكـي إيييه.. تحفة..

- آه.. فكـرة برضــه.. ولا هــاي لايـتس.. أنهــي يليقلــي أكـتر يــا رانيا؟

- الاتنين هيخلوكي قمر..

بنت نصابة فعلا.. يا نهار أبيض منها.. والله نفسي أعمل البلونـد والهاي لايتس دي.. أيوه.. ما هو من ساعة مـا اشتغل في البحـر الأحمـر وهو أكيد بيشوف أجانب بالهبل.. أيوه.. بلوند عشان ما يبقاش له نفـس في حاجة.. آه..

بس.. بس مع سماري خايفـة أبقـى وحـشة فيـه.. طـب خلينـا في

الأحمر.. آه.. أجانب كتير شعرها أحمر.. وأهو برضه ما ابقاش بوظت شعري أوي..

يا حبيبي يا حمادة.. والله ضفرك برقبة رجالة مصر كلها..

يا سلام.. أنا فعلا أمي الله يرحمها كانت دعيالي.. وكانت بتحبه.. آه.. كانت بتقول ده ابني اللي ما خلفتهوش.. ودعوة الأم تجوز في أي حاجة.. الحمد لله..

- رانيا.. بصي حبيبتي.. أحمر ماهوجني ده لامع كده وفاقع ولا مكتوم زي النبيتي؟

- بين بين.. يعني لا فاقع أوي ولا غامق أوي.

- طيب عاوزاه.. بس بسرعة والنبي عشان سايبة العيال عند أختي ومش عايزة أتأخر عليهم..

- عينيه.. هوا..

بس بعد بكره بقى بعد ما يصحى من النوم ويفوق كده هاحكيله على اللي عمله حسام كله.. وهو يشوفله صرفة معاه.. آه.. أنا ما بقتش قادرة على الولد ده.. هيوديني المُرُستان..

عدى التلاتاشر وبقى في السن الرخم بتاع المراهقة وأنا خلاص

تعبت من المناكفة معاه كل يوم على المذاكرة وعلى نضافة أوضته وعلى الهباب اللي طلعلنا في المقدر جديد اللي اسمه الفيس بوك.. آه..

حمادة بقى يتصرف.. هقوله ياخد الكمبيوتر منه خالص..

ولا بلاش لأنكد عليه؟ بلاش.. حرام..

ده هما كلهم ست أيام بيجيهم كل شهر يريح أعصابه من تعب العمال والإنشاءات والحاجات بتاعة الهندسة دي.. حرام أنكد عليه وأحرق أعصابه..

هو يا دوبك يستريح ويقعد مع العيال ومعايا أنا كمان هاهاها.. ونخرج.. ممكن نخرج..

أففففف..

طبعا هيزور أمه واخواته.. وطبعا هيجرجرني أنا والعيال معاه.. يا بااااي..

من ساعة ما البنت السافلة اللي اسمها هدى بنت أخته دي ما صاحبت هنادي بنتي وأنا مش طايقة أشوفهم..

بنت سافلة وقليلة الأدب وبتاعة صبيان..

وطبعا أمه هتعمله كوارع ومحشي زي كل مرة.. يعني بجد حاجة

تقرف.. كوارع إيه وقرف إيه؟ وكمان المحشي بتقليه في سمن بلدي بعد ما تسويه.. يعني بجد دي أم دي؟ في أم تجيب لابنها تصلب شرايين؟

بس معلش عشان حبيبي حمادة أستحمل كل حاجة.. ده شقيان عشان ولاده والله.. ده ضفره برقبة كل الرجالة اللي في الدنيا كلها..

ده حبيب عمري من واحنا في الجامعة..

لسه فاكراه أيامها.. هاهاها..

كان مربي سوالف وشعره طويل وما في مظاهرة في الجامعة إلا لما كان يشترك فيها.. كان ثورجي وكانت كل البنات بتحبه..

بس هو اختارني أنا.. حبني أنا.. وطلبني من بابا ثالث يوم بعد نتيجة البكالوريوس..

حبيبي يا حمادة.. ربنا يخليك ليَّ ويباركلي فيك وتفضل تحبني وأنا أحبك كده لغاية ما نعجز.. وأنا أموت قبلك.. ما اقدرش أستغنى عنك يوم..

– مالك يا مدام إقبال؟ ريحة الصبغة خلتك تدمعي ولا فيه إيه؟

– ولا حاجة يا حبيبتي.. أصلي افتكرت حاجة صعبة.. خلاص أهه أنا كويسة..

- خضتيني.. طب تشربي لمون؟ أجيبلك لمون؟

- هاهاها لا يا حبيبتي تسلميلي يا رب.. شهلي بس خليني أمشي والنبي.

- من عينيّ حاضر..

حبيبي يا حمادة.. والله وحشتني.. وحشتني قعدتنا الصبح نرغي ونشرب قهوة في البلكونة.. وحشتني قعدتنا بالليل وسط العيال نتفرج ع التليفزيون.. ووحشني حضنك وطبطبتك عليَّ زي ما اكون طفلة صغيرة..

يا رب تيجي بالسلامة يا حبيبي.. والله ده انت عندي بالدنيا.. دانت ضفرك برقبة رجالة الكون كله!

9

أوضة نوم

يعني أنا يعني ربنا مش هيتوب عليَّ من أم الشغلانة دي؟ يعني زفت البرك سيد مش كان يخلّص أم الأوضة ونتجوز ونتلم؟ يعني هو أنا ما ليش نفس أرتاح بقى؟

يعني مش كفاية أمي وقرفها والنكد عمال على بطال ليل ونهار أقوم آجي هنا ألاقي نسوان بتعيط وتانيين بتتآمر وكمان الزفتة اللي اسمها رانيا دي اللي عاملة عليَّ ريسة؟

يعني أنا ناقصة؟

مش كفاية طول النهار مكفية على طبق الباديكير أصنفر في كعوب الستات الدكر اللي بتيجي أم المحل ده؟ أنا يعني مش فاهمة.. عاملين هوانم وشياكة.. طب يغسلوا رجليهم طب.. ده حاجة تقرف الكلب.. ولا أما يومي يبقى أسود وواحدة تدخل تطلب سويت.. ويا ريتها جت على

جلخ الرجلين والدراعات.. كله كوم وتحت الباط كوم.. ومهما أحط في بودرة بتعمي م الريحة.. أعد أدلق في بودرة أدلق في بودرة أما ببقى خلاااص.. واكلة بودرة لكيعاني.. برضه مفيش فايدة.. ولو تجهيز عروسة.. يا لهوي ي ي ي ي..

يعني لو رانيا دي هي اللي تعمل باديكير وأنا أسشوَر كان حصل إيه في الدنيا؟ خربت؟!

أنا تعبت.. بجد تعبت.. ومش عارفة.. طب.. طب أستنى سيد قد إيه كمان؟ طب ما هو جمال كل شوية هاتك يا زن: تعالي يا بت أفسحك.. تعالي يا بت ده أنا جايبلك حاجة حلوة.. ودباديب ومجّات وسناسل فضة.. هو عاجبني.. بس هو لعبي ومش بتاع جواز.. وأنا عايزة أقعد في بيتنا.. أنا عايزة أخلف.. عايزة أفَطَّر عيال الصبح وأوديهم المدرسة وأغَدِّي الراجل الضهر وأقطع لهم تفاح أصفر واحنا بنتفرج على مسلسل الساعة سبعة.. بلاش تفاح.. برتقان.. وننام.. آه..

كله شايف الاسترتش الجينز وفاكر إييه.. البت بتاعة الكليبات.. وأنا غلبانة.. وقرفانة.. وطالع تربنتيني كمان وعايزة أرتاح..

– ااااااااااي ي ي ي.

– فيه إيه يا مدام؟ (أففففف مرقعة الستات بقى وهتقرفني).

- فيه تعويرة.. فيه دم.. حد يعمل كده؟

- يا مدام الضافر داخل في اللحم وعشان أظبطه سن المبرد دخل فيه.. دي نقطة يا مدام.. نقطة دم!

- نقطة!! نقطة إيه يا معتوهة إنتي؟ بصي تحت رجلك وانتي تشوفي الدم ع الأرض.. وكمان لسانك طويل!

- أفففف يا رانيا.. يا رانيا.. كملي للمدام عشان شغلي مش عاجبها.

أنا هخرج بره.. ده إيه الفقع ده؟ أنا مش طايقة نفسي.. ما كانتش يومية تلاتين جنيه عُمي اللي باخدهم عشان كل مَرَه من دول تقرف في أمي كده.. تلاتين.. مش زي المضروبة التانية اللي بتلهف خمسة وأربعين جنيه حار ونار في جتتها غير البقشيش..

- إيه يا ست هانم؟ بتعملي إيه بره؟! وإيه اللي نيلتيه مع مدام شيرين ده؟

- يا أستاذ أشرف أنا مخنوقة.. خمسة وداخلة.. بعدين أنا ما عملتش حاجة ده كان الضافر..

- زينب.. أنا طهقت خلاص.. لا ضافر ولا بتاع.. الزبونة عندها حق.. وطريقتك مش عاجباني.. ولوي بوز مش عايز.. تدخلي يا ماما تتأسفي وتكملي شغل بالراحة.. انتي فاهمة؟!

- يا أستاذ أشرف انت بتزعقلي ليه دوّقتي؟ إذا سمحت مش تزعقلي.. الله!!

- انتي هتعيطي كمان؟ إيييييييه!! أنا فاتحها حضانة هدادي فيكو ولا إييييييييه؟! ما تتعدلي.. قسما عظما لو ما كنتي معدولة وداخلة لأديكي حسابك ومع السلامة..

- حاضر حاضر خلاص.. خمسة وداخلة!

طب وحياة أمي لهسيبهالك انت والمدعوقة اللي جوا دي.. بس أرسى على حل مع الزفت سيد.. فين الموبايل؟

- أيوه.

- أهلا بقمر حياتي.. الحتة الطرية بتاعتي.. مُزة حارتنا هي هي هي هي.

- بقولك إيه اسمع.. آخر كلام.. الأوضة هتخلص إمتى؟

- ورحمة أبويا في الأرض لسه مكلم عمك رضا النجار وقايلي على آخر الأسبوع الجاي كله هيبقى تمام.. هنفرش وخلاص.. ونتلم على بعض يا قمر..

- طب بص.. والنعمة والنعمة لو ما كنت تكتب عليَّ وندخل أول الشهر.. أهو كده يعني بعد تلات جُمَع عشان يبقى عداني العيب.. لاكون

فاسخة الخطوبة ولا عايزة أشوف وشك تاني.. خلاص.. أنا قرفت واتبهدلت وانت إيدك في ميه باردة.

– الله الله الله.. إيه؟ مالك داخلة فيَّ شمال ليه؟ مانا طافح التراب أهه عشان خاطرك.. إيييه.. وحِّدي الله كده.. الله! هجيلكوا البيت بكره نتكلم براحتنا..

– ومش النهارده ليه؟

– عندي مصلحة.. مش فاضي.. ما تتعدلي بقى!!

– ماشي.. اللي عندي قلته وانت حر.. سلام!

قال مصلحة قال.. أقطع دراعي لو ما كان هيقابل الزفوت ع القهوة ويقعدوا يشيشوا زفت على دماغه..

ولّا التاني.. قال هديكي حسابك قال.. ماشي.. ابقى شوف بقى مين هيفتح المحل الساعة تمانية الصبح يا ابن الهرمة..

– ألو.. أيوه يا جمال.. ازيك..

– أهلا أهلا.. ازيك يا جميل؟

– أنا كويسة.. انت عامل إيه؟

– أهه.. فُل!

– وراك إيه النهارده؟

– ورايا انتي هي هي هي.. هشوفك؟

– آه.. أقابلك ع الكورنيش؟

– ماشي.. عند الفندق؟

– آه.. أنا هخلص شغل وأروح أغير وأجيلك على تسعة كده.

– وهتقعدي معايا كتير ولا ربع ساعة وجري ع البيت؟!

– ساعة.. أقعد ساعة.. حلو؟!

– وماله.. هتلاقيني هناك من قبل تسعة..

ماشي.. فاضل ساعتين وأخلص.. يعدوا بالطول ولا بالعرض.. هتأسف للولية.. مش حاشمّت البت رانيا فيَّ.. وبالمرة أحط حتة كريم تفتيح من اللي جابه أستاذ زفت للزباين.. هاخد حتة وأحطها في الحمام بسرعة.. أيوه.. السمار مش حلو.. عايزة أبيضّ كده ولوني يحلوّ.. وهيَّ البت مننا إيه غير شكلها هو اللي هينفعها.. أيوه.. والحمد لله إني عاملة شعري الصبح قبل ما الزباين ييجوا.. كده أخرج وأنا إيه.. برنسيسة..

10

في خيالي صورة

البت دي إيدها تقيلة بنت الذين.

أعلم تمامًا أن حاجبي الغليظين اللذين لم تمسسهما يد تحمل ملقاطًا يصعب التعامل معهما.. فشعرهما متمرد على عظمتي الحاجب.. متمرد رافض التشذيب.. هارب إلى أعلى وأسفل والجوانب.. سميك أسود يوحي بقسوة وقوة أفتقدهما تمامًا..

فلم أكن يومًا قاسية أو قوية.. فقد اهترأت أعصابي من قسوة الآخرين وقوة بطشهم بي..

أنا نوع من البشر يكاد يكون قد خُلِق ليكون قاعدة تعذيب تشابه جوانتانامو.. أناتانامو!!

فحزام أبي الذي عَلَّم على جسدي أولى علاماته غلّف عقلي بغلافٍ

من الألم تحول إلى جزءٍ طبيعي من جوانب الحياة.. مثل الشمس والقمر والنوم..

أما شتائم أمي من نوع: «قومي يا عِجْلة امسحي أُدام الباب»..
«غبية زي أبوكي بالظبط..

***

أم اليوم اللي خلفتك فيه»، فقد عرفتني ماذا تفعل الحروف بأرواح الناس.. كم ترقى بها وكيف تُحدث بها ندوبًا تنزف طوال الوقت..

ولكن ما أحدثه زوجي من جروح فاق ضحايا حروبٍ دامية..

كسرتني ثم ردتني إلى أرض الأحياء عندما استجمعت قوة كونية لا أعرف من أين أتت ولا كيف استقرت بقلبي حتى تمكنت من الخلاص منه للأبد..

متحدية يده التي لا تعرف الله وفمه الذي احترف سبي وسب الدين..

ومتحدية أبي الذي أنهكه العمر فانضم إلى فريق أمي ذات اللسان أخي الأفعى..

ومتحدية انعدام ثقتي بنفسي وضعف حيلتي، فقد كنت المثال الحي والتعريف العلمي لكلمة ضحية..

والآن.. وبعد سنين من البكاء والانكسار والمحاولات الشاقة لتمثيل قوة وصلابة وجأش.. وبعد ما رأيت كيف رمقني كمال بإعجاب على الرغم من تدني ما أرتديه.. وتدلّي حمالتَي صدري حتى كادتا تلامسان وسطي.. وعلى الرغم من توحش حاجبيّ.. على الرغم من ذلك استفقت إلى معنى جديد.. معنى كلمة أنا..

أنا موجودة.. أنا أقدر.. أنا ما زلت..

– والله يا مدام هخليكي قمر.. حواجبك هتبقى ولا هلال رمضان.. هو حضرتك بقالك كتير ما جيتيش ليه؟

– الدنيا بقى والولد والمدرسة والهم.. الواحد كان ناسي نفسه والله.. مهملة أنا أوي..

– ربنا معاكي يا مدام.

– إيه ده؟ استني.. أنا مش عايزة هلال.. أنا عايزة حواجب أتراكتيف!

– هه!! حاضر.. بس هناخد وقت شوية..

– ناخد.. شايفة المدام الشيك أوي أوي اللي قاعدة هناك دي؟

تعرفي تعمليهم زيها؟

- أيوه.. دي المدام دي رهيبة.. تصدقي يا مدام انا ما اعرفش اسمها.. بس أسمع انها نجمة سيما من سوريا أو لبنان أو حاجة كده.. عربيتها كمان..

- انتي هتحكيلي قصة حياتها؟ أنا عايزة حواجبها بس.. بصي.. وشعرها كمان.. أصل في خروجة النهارده.. تعرفي.. ده أول راس سنة أخرج فيه في حياتي.. اللي طول عمري بشوفه في التليفزيون وأبو وليد بيشخر جنبي هبقى فيه النهارده.

- ههههههههه حاضر.. عسل والله يا مدام.. سكر.

أبو ابني.. الذي كان نومه عبادة.. ورحمة وإجازة لي.. أمان من صفعة أو ركلة يستفزها أي شيء.. أي شيء على الإطلاق..

كمال هادئ.. رصين.. جذاب.. صوته رخيم يذيب الأعصاب.. إذا سنحت لي الفرصة سأراقصه كالأفلام الرومانسية اليوم.. وماذا لو قبلني عند منتصف الليل كما يفعلون بالأفلام؟ بسيطة.. لن أصدّه.. فهي قبلة.. قبلة سريعة.. تعبيرٌ عن العاطفة.. الحب.. وأعرف أنه محترم ولن يرى قبولي للقبلة كأنني من النساء الفاجرات.. هو يعلم.. حكيت له كثيرًا عن حياتي ويعلم أن جسدي لم يمسسه إلا زوجي.. ولن.. آآآآه.. سيكون زوجًا

رائعًا.. حالًما.. محبًّا.. مخلصًا.. محترمًا.. هادئًا..

- ألو.

- أيوه يا حبيبتي.

- أهلاً (أشعر أنني أبتسم أكبر ابتسامة تفتقت عنها شفتاي الرفيعتان).

- ازي القمر النهارده؟

- هاهاها.. الحمد لله.. وانت ازيك؟

- وحشتيني.

- وانت كمان (حرارة وجهي ألهبت عينيّ.. ياللسعادة التي أشعر بها).

- هعدي عليكي الساعة 10 زي ما اتفقنا.. تكوني جاهزة.. أوكي.. هاسهرك سهرة ما شفتيهاش في حياتك.

- بجد.. طيب كمال.. هنروح فين؟ (وفي خيالي صورة زينة ومُعلّقات برّاقة بألوان حمراءَ وزرقاءَ وصفراءَ وأقنعة لامعة وموسيقى وراقصين أجانب ولافتة أكبر فندق بمصر).

- أجمد حفلة في مصر.. عاملها في بيتي اللي هو هيبقى بيتك يا

روحي..

- بيتك؟! لا يا كمال.. بيتك ما ينفعش.. ما يصحش كمان.

(أعرف أن نبرة صوتي خذلها ضياع الصورة السابقة وتغلب عليها قلق شديد).

- ليه بقى إن شاء الله؟ هو احنا صغيرين ولا إيه؟ هو انتي مش واثقة في حبيبك؟ (تحول صوته من نبرة جارحة بأول الجملة إلى نبرة متلطفة بنصفها الآخر تربكني).

- واثقة طبعًا ما تقولش كده.. بس معلش.. بيت ما أقدرش.. آسفة.. خلينا نروح أي حتة تانية..

- حاضر يا حبيبتي.. أهم حاجة تبقي مرتاحة.

- ربنا يخليك ليَّ.. هشوفك الساعة عشرة.. باي باي.

ارتاح قلبي.. للحظات كنت ظننت أنه.. أنه.. لا يحبني.. وفقط له فيَّ طمع..

لكنه ليس من ذاك النوع من الرجال.. هو أنيق.. في لبسه وفي كلماته وفي حركاته..

هو رجل رأى العالم وحقق نجاحات وعرف الكثير.. كيف أفكر

فيه هكذا؟

إنه تأثير بكاء الفتاة الذي وصل إلى خارج قسم المحجبات حيث أجلس.. نعم..

فالجو الكئيب والصراخ والنحيب ثم القصة التي روتها لنا رانيا بصوت منخفض عن الفتاة التي طلقها زوجها أثرت على مزاجي..

لا.. يجب أن أنتشي من السعادة لأن رجلاً رائعًا ككمال يحبني..

– ااااااااااااي ي ي ي.

– فيه إيه يا مدام؟

– فيه تعويرة.. فيه دم.. حد يعمل كده؟

– يا مدام الضافر داخل في اللحم وعشان أظبطه سن المبرد دخل فيه.. دي نقطة يا مدام.. نقطة دم!

– نقطة!! نقطة إيه يا معتوهة انتي؟ بصي تحت رجلك وانتي تشوفي الدم ع الأرض.. وكمان لسانك طويل!

– أفففف يا رانيا.. يا رانيا.. كملي للمدام عشان شغلي مش عاجبها.

– أيوه مش عاجبني ومش عايزاكي أصلا.. يا رانيااا.

- روحي انتي دلوقتي.. أيوه يا مدام شيرين تحت أمرك.. معلش حقك عليَّ.

- يا رانيا أنا هخرج وهلبس كعب سبعة سنتي.. كده صباعي هيورم ومش هعرف أمشي في الكعب العالي.. ينفع كده؟ إيه النكد ده بجد؟ بعدين أنا هتأخر كده ولازم أروح البيت أجهز.. يووووه.

- خلاص يا مدام والله دقايق وحضرتك هتبقي جاهزة..

* * *

- ماما.. انتي خارجة رايحة فين؟

- مشوار مهم يا حبيبي.

لماذا ينظر الصغير إلى وجهي وفستاني الأزرق اللامع هكذا؟

يشعر بأنني غير صادقة؟

- طيب هتتأخري؟

- لأ.. آجي ألاقيك نمت.. اتفقنا؟!

- حاضر.

الساعة الآن العاشرة..

الساعة العاشرة وعشر دقائق.. أين هو؟ ولِمَ لا يرد على هاتفه؟

الساعة العاشرة والنصف.

الساعة الحادية عشرة.

الساعة الحادية عشرة والنصف.

الساعة الثانية عشرة.

ودقيقة..

١١
نجومية

طبعا أنا لو صرخت من هنا للسنة الجاية ما حدش هيعبرني.. نفسي أعيط زي البنت دي ونفسي الناس تتلم عليّ ونفسي في حد يحضني..

بس.. من زمان فهمت إن اللي زيي مش بيلاقي حد يتعاطف معاه.. ومن زمان اتصالحت مع الفكرة دي، إني نوع من الناس.. مش زي كل الناس ومش شبه كل الناس..

ومتأخر أوي فهمت إني ما كنتش أحب أبقى كده، قريب بس بقى نفسي أبقى عادية.. واحدة عادية.. ست من اللي بنشوفهم في المصالح الحكومية بتزعق في المواطنين.. أو ست حبيبة الكل زي المدام اللي صالحت البنوتة.. أو حتى زي رانيا..

كيان معروف ومحدد وله مكان وسط الناس.. إنسانة مقبولة..

منسية في الزحمة لأنها مش بتزعج حد بوجودها.. لا بتثير في حد حاجة وحشة ولا حاجة حلوة.. ست عادية.. تتحب وتتجوز وتخلف وتكبّر عيالها وتشيل هم الميزانية لما تخرَّم قبل نهاية الشهر ولما تموت يعيطوا عليها وتبقى «ماما الله يرحمها».

أنا.. أنا شكلي كان مختلف.. وإحساسي بشكلي كان مختلف.. شكلي نجمة! من وانا صغيرة بحس بكده.. إني نجمة!

حتى لما كان بابا يقول لي إني شبه شمس البارودي كنت أبصله كأنه شتمني وأقوله: أنا أحلى ميت مرة وشعري أصفر وهبقى أشهر منها لما أكبر.. كان يضحك ويديني أحلى حضن وأحلى بوسة وينزل يقابل زمايله في الشركة..

بس هو مات.. والنجمة ما انطفتش.. بالعكس.. حرقت جهد أكتر عشان توصل للسما من كتر خوفها من إن ما بقالهاش حد..

زَحَمْت الدنيا حواليا بناس..

ناس من حظي أو من جهلي شافوا فيَّ اللي يجيبلي ويجيبلهم دهب..

حاولت أمثّل عشان أبقى أشهر من شمس البارودي وأعيش نجوميتي بحق بس ما نفعش.. رغم إن كام مخرج على كام منتج وعدوني

و.. وحبوني، إلا أن مواهبي اللي عرفوها مـا تـنفعش علـى الـشاشة.. مـا أصلحش أمثّل!

بس أنفع أبقى نجمة.. نجمة خاصة.. نجمة لناس قليلة مش ناس كتيرة بس برضه غنية وعندي خدم وعنـدي اللـي يتمنـولي الرضـا عـشان أرضى.. وبرضه مثلت بس تمثيل من نوع تاني..

مثلت إن «بابي» رجل الأعمال الشهير اللي هاجر لألمانيا مات مـن كام شهر وسابني لوحدي..

مثلت إن العربية المرسيدس المتأجرة هي آخر حاجة اشـتراها لـي قبل ما يموت..

مثلت إن المعلقة الدهب اللي اتولدت لقيتها في بُقي لازم تبقـى مـن الماس وإلا يسكنّي الحزن أو أكتئب وما اعرفش أستمتع بحياتي..

مثلت إني عايشة للحب..

إني خليفة فينوس.. إن الألحان اتخلقت عشاني والأشعار اتكتبت فيَّ..

إن مستوايَ مش أقل من مستوى الأميرات..

وإن كل الستات وحشة وغبية ونكدية إلا أنا..

مثلت إن لـبس العبايـات الحريـر الـشفافة في البيـت مـع الكعـب

العالي والماكياج الكامل والمجوهرات ومباخر العود اللي مش بتطفي وصواني الفاكهة المستوردة وفازات الورد الطبيعي اللي بتتغير كل يوم ده العادي بتاعي..

وكأني بصحى من النوم شكلي كده ولابسة كده ومزاجي حلو وحالم كده..

وكله صقّف.. وكله انحنى بإعجاب.. وكله ما بقاش تمثيل.. بقى واقع وصدقته وعيشته..

وأصبح لي جمهور.. صدقوني ودلعوني وعاشوا تحت رجليّ.. وجمهوري كان كله من الصفوة..

بس.. رغم الفلوس وحياة الملوك.. باجي هنا.. أصل هنا مش هيتعاطفوا بس.. مش هيفهموا ومش هيكرهوا..

الوشوش في الكوافير ده مش هعرفها.. والعينين هنا مش هتفضحني..

الستات هنا ما يعرفوش بوجود اللي زيي.. وعشان كده بقعد في ركن المحجبات مع إني مش محجبة..

ومن أول مرة رانيا اقترحت إني أقعد بره في القسم العادي وقلت لها لأ، ما سألتنيش تاني.. أصل الستات هنا مش مخوفني.. عشان

أزواجهم عمرهم ما هيكونوا من جمهوري..

الستات هنا مش هتتعاطف لأنها مش هتشوف فيّ غلطة.. والستات ما بتحبش الست الكاملة.. لأن التمثيل اللي بمثله تلقائي هيحسسهم إني أفضل.. والأفضل ما حدش بيحبه.. كله بيحب اللي شبهه.. اللي أقل حتى.. بس ما حدش بيحب الأحسن..

إنما في كوافيرات الصفوة.. الستات هتبصلي من فوق.. هتبص وتعرف إن أنا اللي جوزها بيعشقني.. إن أنا اللي واخدة السر.. أنا السر نفسه..

الستات هناك ممكن يدبحوني.. وفي وسطهم هحس بالذل.. وهخاف.. والدونية ما تليقش للنجوم..

كتير بتمنى ما اروحش للكوافير ولو حتى شهر واحد آخده راحة.. بس..

بس شكلي ده راسمالي.. والمعجب من دول لما بيحب نجمة ما بيبقاش عايز يشوفها إنسانة.. لا.. يعني لو النجمة مرضت ولا تلاقي اللي يسأل فيها..

ما حدش هيحبني لو مش نجمة على طول.. حتى جوه بيتي لازم أبقى نجمة.. شعري المصفف بعناية.. مانيكير وضوافر ما لمسوش ميه..

لبس ولا ألف ليلة وليلة.. حرير وشيفون.. ماكياج.. عطور.. إضاءة.. بالظبط كأنه لوكيشن تصوير فيلم..

عشان هو بيحب يبقى بطل القصة اللي ما حصلش.. اللي عرف يسرق قلب البطلة الأميرة.. عشان يحس بنشوة الوصول للنجوم لازم أبقى أنا في السما..

وساعتها يطول القمر بإيديه..

وساعتها طلباتي من غير ما أطلبها هتتحقق..

ولو إن أحلامي ما بقتش أحلام.. بقت فتافيت سهل أوي تبقى عندي.. وحتى بعد ما بقى عندي كل حاجة تكفيني لحد ما أموت.. برضه أنا نجمة.. وهفضل نجمة..

مهنتي إني أخرس الواقع وأصنع حلم.. أكل عيشي.. اللي ليّ في الدنيا.. النجومية.

12

عشر كراسي جلد صُفر

«يا أستاذ أشرف انت بتزعقلي ليه دوَقتي؟ إذا سمحت مش تزعقلي.. الله!!

- انتي هتعيطي كمان.. إيييييييه!! أنا فاتحها حضانة هدادي فيكوا ولا إييييييييه!! ما تتعدلي.. قسما عظما لو ما كنتي معدولة وداخلة لاديكي حسابك ومع السلامة..

- حاضر حاضر خلاص.. خمسة وداخلة».

أستاذ أشرف وأستاذ زفت.. آدي اللي أنا واخده من الحريم وقرفهم.. فاتح المحل أنا عشان أدلع فيكوا جاتكوا داهية تاخدكوا.. دلوقتي أستاذ أشرف.. مش كنتي بتضحكي يا بنت الكلاب لما الولية إياها قالت عليَّ أستاذ كنيش..

سيجارة.. أنا محتاج سيجارة.. أيوه.. آدي الكرسي هحطه في الجنينة وهجيب كباية الشاي من جوة وأبعد عن المُرستان ده نوية..

يا سلاااام ع الهدوء.. أففففف.. كنت محتاج السيجارة دي..

أنا بقالي أد إيه بدخن؟ تلاتين سنة؟ يا نهار أسود!! من أيام ما.. آه.. من أيام ما نزلت الشغل..

أيامها كان عندي اتناشر سنة.. يا دوبك في أولى إعدادي.. أيامها فرحت أوي لما أبويا نزلني الشغل في محل عمي حسين.. حسيت إني كبير وحسيت إني راجل مع إني ما كنتش فاهم أنا هشتغل إيه.. كل اللي كنت أعرفه إن عمي عنده كوافير.. كنت بشوفه أحيانًا وأنا بديله حاجة ولا باخد منه حاجة وهو ماسك شعر الستات الزباين وبيعمل حركات ولا الساحر.. كان بيبقى نفسي أقعد أتفرج عليه وهو بيشتغل وبيضحك ويتكلم مع الزبونات.. بس كان دايما يشوفني عايز إيه ويمشيني بسرعة.. وعشان كده فرحت أوي لما أبويا قاللي إني هنزل أشتغل معاه..

ونزلت الشغل..

كنت بكنس الشعر اللي بيتقص ويملا الأرض وكنت بمسك لعمي الفرانشات والبُكلات أناولهاله وهو شغال، وأحيانا كنت أقف جنبه أناوله بنسة ولا تاج وهو بيوضب عروسة..

كان نفسي ألمس شعر واحدة من دول.. كـان نفـسي أنـا اللـي أفـرد وأسَرح وأكوي وألف وأعمل أشكال جميلة زي مـا هـو كـان بيعمـل.. كـان نفسي أكلمهم وأتصاحب عليهم فيحكولي حاجات زي ما كانوا بيحكوله.. بس كان ممنوع أهمس حتى..

ولما كنت أسْرح في شكل الستات ولا لون شعرهم ولا الحكايات اللي بيحكوها فأتأخر عليه في مناولته حاجة كان ينزل علـى وشـي بحتـة قلـم يفوقني أسبوع لأُدام..

عمري ما عيطت أُدام زبونة.. كنـت بمـسك نفـسي وأقـول: اوعـى تعيط يلا.. انت راجل..

كان بيبقى نفسي الأرض تتشق وتبلعني.. كنـت بتوجـع أوي إنـي بتهزأ كده أُدام ستات اتخيلتهم زبايني.. أو يعني هيبقوا زبـايني في يـوم من الأيام..

وعشان كده مع الوقت كرهت عمـي ده.. وعـشان كـده كنـت مهمـا أذاكر كان كل حلمي إن يبقى عندي كوافير أنا اللي أشغل فيه عمي عنـدي وأنا اللي أرغي مع الزبونات وأعملّهم شعرهم.. ما كانش يهمني إني آخـد شهادة بس كنت بذاكر عشان أمي ما كانش ليهـا غـيري وكنـت بحبهـا.. هي كان نفسها في الشهادة.. كانت بتقول لي: خُد الشهادة وحياة الـنبي،

نفسي أحس إن شقايا عليك كان بفايدة..

وأخدت الدبلوم.. ورُحت البوسطة أشوف أنا حوشت كا ولقيتني حوشت أربع تلاف وستميت جنيه.. مع إني كنت بساعد أبويا بفلوس كل شهر.. وفرحت أوي إني عندي المبلغ الكبير ده.. أيوه.. ما هو الستات كانوا بيدوني بقشيش.. مش كبير زي اللي كانوا بيدوه لعمي ولا زي اللي كانوا بيدوه للبنات اللي بيعملوا فتلة بس أهو جَمع!

ده غير طبعا إن البقشيش كان بيزيد مع كل قلم بيعلم في وش من إيد عمي اللي زي المرزبة.. كانت الست من دول تقول له بصوت حنين: «إخص عليك يا حسين.. كده برضه.. ده لسه صغير».

فيرد يقولها: «صغير إيه؟ ده شحط وزي العجل أهه.. بعدين أنا بعلمه زي ما اتعلمت».

هو الصراحة علمني.. بس علمني مضطر.. لما كبرت شوية بقى يديني حاجات أهم أعملها لأنه كان عجز والسكر تعبه وما بقاش يستحمل الوقفة.. بقيت ألف أنا البُكلات.. وأغسل الشعر وبقى هو يكوي ويعمل سيشوار ويقص..

وآخر سنة ليَّ في الدبلوم علمني المكوى والسيشوار.. لكن ابن الهرمة ما رضيش يعلمني القص..

فكرت كتير أعمل إيه بالفلوس.. أفتح محل صغير في حتـة بعيـدة ولا أستنى أحوش تاني وأفتح محل كبير في حتة حلوة..

وفي يوم كنت واخد فيه بت جديدة بتاعة فتلة عشان أظبطها.. كنا واقفين ع النيل وفي لحظة صفا بقولها:

– أنـا خـلاص.. بكـرة أبقـى كـسيب وأفـتح محـل زي مـا نِفـسي وهسميه «سيدتي الجميلة» زي مرسحية فؤاد المهندس وشويكار..

– والنبي؟ عمك هيعملهولك ولا أبوك؟

– عمي إيه يا هويدا؟ أنا اللي هعملـه.. أنـا معايـا فلـوس كـتير.. انتي فاكراني هفأ؟!

– لا ما اقصدش والنعمة.. فلوس أد إيه يعني؟

– بتاع خمس بواكي كده!!

– يا سلاااااااااام!! وانت فاكر خمس بواكي يفتحوا محل؟

– آه ياختي يفتحوا أبوه كمان.. محل صغير يعني وفي حتة تانيـة مش زي اللي فيها عمي دي بس..

– يا بني انت بتحلم.. أقل أقـل محـل لما تبقـى واخـد خُـن عايزلـك 3000 خلو، ده غير الإيجـار والفـرش والسيـشوارات والعـدة.. ده كرسـي

مزين واحد بـ250 جنيه.. ده المراية بس تعملها الشيء الفلاني غير الحوض والسخان والشامبوهات والبلاسم وأجرة الصنايعية واستهلاك الكهربا والميه.. انت فاكرها سهلة يا بني؟ ده انت عايز بالميّت عشر بواكي..

– إيييييييييه.. جتك ستين نيلة قفلتيها في وشي.. غوري يا بت ما تتكلميش معايا تاني..

للأسف كان عندها حق.. ورجعت أدوق مرار عمي.. اللي شافني أُدامه بقيت قد الباب فما بقاش يمد إيده عليَّ بس بيمد لسانه.. واستحملت.. لحد ما قابلت مدام عفاف..

مدام عفاف معدية الخمسين بكتير، كانت وحشة أوي..

أوحش ست شفتها في حياتي.. ملامحها صعبة أوي وعينيها مدغمشة أوي وسنانها مِعَوّجة ومَبريّة أوي وريحة بقها زي القبر وتتشم من بُعد.. المهم وحشة أوي أوي أوي..

بس لطيفة أوي ورقيقة أوي وصوتها حلو أوي أوي.. وكريمة أوي.. أقل بقشيش كانت بتديهولي كان عشرين جنيه، حتى لو كان كل حسابها عشرة جنيه.. برضه.. وما كانتش بتدي حد بقشيش إلا أنا.. وما كانتش بترضى حد يعملها حاجة غيري أنا..

وفي يوم رن تليفون المحل ورد عمي وادّاني السماعة وهو نفسه

يضربني بيها على دماغي..

- ألو.

- ازيك يا أشرف.

- أهلا يا مدام.. مدام عفاف صح؟

- هاهاها عرفتني من صوتي؟

- أيوه طبعا يا أفندم.. أؤمريني حضرتك.

- أنا وقعت ومجبسة رجلي يا أشرف.. وجايلي ضيوف لازم أعمل شعري.. ممكن تجيلي البيت؟

- ألف سلامة يا أفندم.. طيب أنا تحت أمر حضرتك بس ممكن دقيقة أستأذن عمي؟

- طيب.

يا رب ابن الهرمة يوافق.. حاكم أنا عارفه يقف في طريق رزقي زي السد!!

- عمي.. مدام عفاف رجلها متجبسة وعايزاني في شغل في البيت.

- طبعا عارف إني ما قدرش أقول لا للزبونة دي بالذات يا لئيم يا ابن اللئيم.. روح في ستين داهية تاخدك.

إن شا الله انت وأفرح فيك وقبر يلمك قريب إن شاء الله.

- مدام عفاف.. تحت أمر حضرتك.. ممكن العنوان؟

- شوف يا سيدي.. عارف شارع الـ..

وروحت لها..

بيتها ولا بيوت الباشاوات اللي بنشوفها في التليفزيون..

ورجلها ما كانتش متجبسة.. كانت مربوطة برباط ضاغط..

كانت لابسة عباية باين من تحتيها قميص قصير.. الولية كانت على سنجة عشرة..

بس وحشة أوي.. أوحش ست شفتها في حياتي.. ورقيقة أوي.. أرق ست شفتها في حياتي..

جابتلي جاتوه وشاي.. في طبق صيني بيلمع.. وفنجان صيني شبهه.. عملتلها شعرها وادّتني سبعين جنيه.. يعني فوق تمن الشعر بحوالي تلاتين جنيه..

واتصلت تاني يوم.. واليوم اللي بعده.. واللي بعده.. وكل مرة أروح ألاقيها غاسلة شعرها ومستنياني..

ومرة لقيتها بتقوللي: أنا أصلي لازم آخد حمام وأغسل شعري كل

يوم.. معلش لو بتعبك.. بس لجد ما رجلي تخف!

يعني الولية المجنونة دي كانت بتيجي المحل مرة في الأسبوع!!

من إمتى بقى النضافة دي؟!

كنت حاسس إن فيها حاجة غريبة بس ما كنتش مصدق الصراحة إن اللي حصل كان ممكن يحصل.. كانت خامس أو سادس مرة أروحلها.. ما لقيتهاش غاسلة شعرها ولا قاعدة عند السفرة مطرح ما بتقعد كل يوم..

كانت قاعدة على الأنتريه مستنياني والبنت الشغالة محضرة صينية فيها حاجات جميلة أوي تتاكل.. حاجات ما شفتهاش قبل كده..

- أشرف.. كلمني عن نفسك.

- ازاي يعني يا أفندم حضرتك؟

- هاها.. يعني مثلا متعلم ولا لأ.. مصاحب ولا لأ هاها ونفسك في إيه في الدنيا..

- هي هي هي.. وليه الإحراج ده بس يا أفندم؟ طب حضرتك أنا معايا دبلوم تجارة.. والبنات يعني عادي يعني.. مش خاطب ولا حاجة بس الواحد ياما عِرف.. ونفسي في الدنيا في حاجات كتير أوي أوي أوي.

- هاهاها زي إيه؟ قول لي.

- نفسي في دكان.. في محل بتاعي أحط عليه يافطة كبيرة بالنيون وهسميه «سيدتي الجميلة».. محل كبير من أوله لآخره مرايات.. وكله اسبوتات تخليه منور زي الشمس.. وهجيب أربع صنايعية وهيبقى فيه عشر كراسي جلد صُفر مزهزهين.. واتنين حوض غسيل وقسم للمحجبات كمان.. هخليه حكاية.. هخلي الناس تجيله من كل حتة في مصر وبالحجز كمان..

- هاهاهاها.. والله برافو عليك.. أهم حاجة في الواحد إنه يبقى عنده طموح.. وأنا أحب الإنسان الطموح جدا..

واتجوزتها.. ما هي لما فتحت الخزنة أدامي وقالتلي إنها هتحقق كل أحلامي كان لازم أتجوزها.. اتجوزتها..

وفضلت أرق واحدة شفتها في حياتي..

وصوتها ولا أحسن مذيعة راديو..

وفضلت أوحش واحدة شفتها في حياتي..

وسنانها اللي كانوا مش عاجبني بقوا طقم سنان بتخلعه كل يوم بالليل وتحطه في كوباية ميه جنب السرير وكنت لما أشوف المنظر ده أكره روحي وتعف نفسي الأكل لما بقيت ممقوت..

بس بقى فيه محل والمحل بقى جميل.. مش زي ما كنت أحلم

بس كان جميل..

وغالبا عمي لما مات كان مات من القهرة.. هاهاهـا.. بقيـت أسطى وهو بقى كومة عضم..

بقيت كل حاجة كنت بحلم بيها وأنا صغير.. بقيـت بعمـل سحر في شعر الزبونـات.. بقيـت أنـا اللـي برغـي معـاهم وعـارف أسـرارهم وأخبارهم..

وكبرت..

وكبرت عفاف أكتر..

ولغاية دلوقتي مش فاهم هي مش عايزة تموت ليه!! عجزت أوي بجد.. دي بتعملها على نفسها والممرضة هي اللي بتنضفها..

والوحاشة زادت أكتر، بس كل حاجة تانية بقت قليلـة.. لا بقـى في رقة ولا دلع.. حتى الفلوس قلت.. أما لسانها فطـول.. بقـت بتفكرنـي بعمي.. مش قادرة تحرك فيها إلا لسان غاوي يحرق لي دمي..

هـي الحـريم كلـها حـرق دم.. مـا بقـتش طـايق الحـريم.. حتـى الزباين.. حاجة تفقع..

يعني البت نُهى دي اللي لمت عليها خلق الله في قلب المحل..

أنا أعرفها من لما كانت عيلة بضفيرتين وبتيجي مع أمها.. طول عمرها عيلة هبلة وبتاعة مناظر.. ما فكرتش ليه تسأل على الواد اللي اتجوزته قبل الجواز؟

ما فكرتش ليه تعرف أخلاقه كويس وتشوف بره البيت بيعمل إيه حتى لو كان ابن عمها؟ ولا العربية البي إم والسنسلة الدهب اللي لابسها والشعر المسبسب كانوا معلومات كفاية؟

ده حتى أمها وهي بترغي معايا وبتحكيلي جيت أقولها إني عارفاه كويس وعارفة كل حاجة عنه، سكتتني بالذوق وقالتلي: أنا كمان عارفاه كويس.. ده ابن أخو جوزي.. وبقولك إنه عريس لُقطة..

يشربوا بقى.. يستحملوا.. مش هما اللي اختاروا الفلوس والروشنة؟!

ولا جيجي..

اللي عاملة فيها أم المصريين ونازلة حنية في خلق الله وأمها نظرها قرب يروح من العياط على بنتها القمر اللي عنست رسمي بعد ما عدت الأربعين..

مش هي دي جيجي اللي شيبت ولا مية راجل بالتناكة والرفض لحد ما بقت الرجالة تخاف تتقدم لها عشان عارفة إنها بت مناخيرها

في السما وعمالة ترفض في كل الناس..

مش أمها دي اللي كانت تيجي لعمي وتقوله: أقل من ابن وزير ما اجوزش جيجي، دي جمال ومال وكل حاجة.. وهو كان يقولها: بس اخواتها الصغيرين اتخطبوا. تقوله: ما حدش في جمال جيجي.. واللي هياخدها لازم يستاهلها!!

تشرب بقى.. أهي جيجي نفسها لو جالها دلوقتي الفرّاش بتاع الوزير هتوافق بس هو اللي ما بيجيش!!

ولا الست الكشريّة اللي بتقول شكل للبيع على طول دي..

لولا إن نُهى قعدت تعيط كان زمانها ماسكة في خناقها عشان الكام نقطة اللي جُم على بنطلونها من طبق الميه..

ما هي لازم تكشر.. بقالها كام سنة منشفاها على نفسها من يوم ما اطلقت..

ماله الطلاق؟ ده نعمة..

فرصة لحياة جديدة..

هي كل من عندها عيال واطلقت تزهد الجواز وتطلع همها في خلق الله عصبية وخناق!!

ولا التانية اللـي لا ليهـا لا عيّـل ولا تيّـل ويتيمـة وعايـشة حيـاة كأنـها عندها سبعين سنة..

لا بتشوف حد ولا تعرف حد ولا بتعمـل حاجـة.. نفـسي أعـرف ليه مواظبة على الكوافير وبتيجي اتنين وخميس بقالها سنين ولا مواظبة جدتي على صيامهم!!

طب ولـو كنـت بقفـل يـوم الاتـنين زي بقيّـت الكوافرجيـة كانـت عملت إيه بقى؟

إلا مـا حتـى مـرة نفعـتني بـإزازة شـامبو توحـد ربنـا ولا فرشـة بلاستيك حتى..

ده غير القطط اللي بيتجمعوا في جنينة فيلتها وبتحطلهم أكـل كـل يوم لحد ما الجيران اشتكوا من الريحة.. ولية قربت تتجنن!!

الوحيدة اللي بحبها بجد هي مدام لُطفية زياد.. أصل الثقافة برده بتخلي الناس كُبّارة كده..

راسية ورزينة ولا كُتُبهـا.. الله الله.. ماليـة المكتبات..

ولا أما عملولها كـذا فيلم سـيما.. يعـني ترفـع الـراس والله.. أنـا بتباهى وأقول مدام لُطفية زياد زبونتي..

لأ وكمان مدام إقبال.. جميلة والله ودمها سكر..

بجد بتخليني أضحك من قلبي.. فيها طيبة أمي وخفة دم البت أختي ولذيذة كده.. لا بتقعد تعيط ولا تشتكي ولا عاملة صعبانيات عمال على بطال..

ست عايشة وحامدة ربنا وبايسة إيدها وش وضهر..

أما بقى البت الحلوة أوي أوي اللي بتيجي من سكات وتمشي من سكات مش فاهملها حاجة..

كتير فكرت تكون متجوزة حد من الكبار ولا بنت حد من الكبار.. الكبار الكبار يعني زي أحمد عز كده..

ولا نجمة سيما مثلا..

بس نجمة مين ما كنت عرفتها!!

الواد حميد بتاع القهوة اللي عندنا مرة حلفلي ميت ملة إنه شافها داخلة من عند الحواجز بتاعة بيت السفير بتاع إسرائيل.. تكون بنته ولا مراته؟!

أصلها جامدة أوي.. حكاية يعني..

أهي دي بقى تحل من على حبل المشنقة.. يعني الواحد بس...

ولا اسمها إيه دي..

- يا أستاذ أششششرررررفففففففف.

- إيييييه.. خضتيني يا نيلة انتي.. عايزة إيه؟!

- البت اللي اسمها رانيا دي ورحمة جدي لو ما كانت تشيلني من دماغها لاكون ماسحة بيها البلاط.

- جرى إيه يا روح أمك؟ انتي هتردحيلي هنا ولا إيه؟ ده محل محترم.. غوري اقلعي البالطو ووريني عرض كتافك بدل ما أنا اللي أمسح بيكي الشارع كله.

ده إيه يا رب العينة الزبالة دي.. لا وهو الصنف ده كله نيله.. إذا كان هي ولا رانيا..

يعني يا رب لو تولع في الستات كلهم مش كان يبقى أريح!!

مش همَّ سبب المصايب.. مش همَّ اللي بيلمعوا نفسهم عشان يوقعونا.. مش همَّ اللي هيدخلونا النار؟!

يعني النسوان دي ينفع اللي بيعملوه في نفسهم ده..

مش ممكن يبقى فيه شاب ماشي جعان في الشارع وهيموت عشان مش عارف يتجوز وهما مالهومش شغلانة غير في قرطسة ده وتعليق ده

وكلبشة ده وتطليع عين أبو اللي خلف ده؟

مش ممكن يبقى فيه راجل فقران وطلعان عينه ومش مستحمل ريحة البرفان الجامدة اللي بتهف في الشارع كله ولا الجينز المحزق ولا البادييهات ولو فتح بقه يتبهدل ويطلع عينه؟

ويا ريت بيرضوا لما ربنا بيكرمهم بواحد طيب.. لا بيشبشبوله..

ياما ورد عليّ أشكال.. المحترمة والبطالة.. المتعلمة ومرات الجزار..

كلهم نفس الصنف والله..

إلا قليل لما الواحد بيشوف ست محترمة..

يعني واحدة بتيجي تتزوق لجوزها.. ولا حتى عشان نفسها.. أما معظمهم فبيعامل جسمه زي ما أنا بتعامل مع دكاني.. طريقة.. سكة.. أكل عيش.. سبوبة.. مصلحة.. برواز مدهب بَلَمّعني.. حاجة وخلاص بتوصلني لعيشة كويسة.. مشروع.. استثمار.. كسب رزق..

كلهم عايزين يمشوا بدماغهم وكلهم عايزين يبقوا «سيكسي» وجامدين والرجالة تتجنن عليهم ولما الراجل مننا يضعف يبقى كُخة!!

جتكوا البلاوي ما بيجيش من وراكوا إلا الهم..

يادي النيلة.. ودي عايزة مني إيه بقى؟

- ألو.. أيوه يا عفاف.. مش جاي يا عفاف ارتحتي.. ربنا ياخدني يا عفاف.. طب بلاش.. ربنا ياخدك انتي يا عفاف!

الفهرس



عشرة آراسي عمر مفراءْ

"هذه الفتاة الباكية هي أنا..
ولكن على الجانب الآخر من النهر..
هي مرآتي.. هي صوتي.. هي شكل
مختلف من أشكال قصتي..
كانت هذه لحظة أعرفها..هي التي
نتجمد فيها بإرادتنا..أنساً بالألم
وارتكاناً إليه خوفاً من ألم أكبر ..
فالفرح دليل حياة.. والألم دليل
حياة.. والحياة تُستَحق فقط إذا قررنا
أن نحياها كاملة وسمحنا لأشواك
الشعور أن تداعب أناملنا كما
تداعبهم بتلات الورود! "

